تجليات أدبية

رحلة السمان

رواية

سحر توفيق

ميريت

arabworldbooks.com

رحلة السمان
رواية

سحر توفيق

الطبعة الأولى ٢٠٠٥ .
(c) دار ميريت
٦ (ب) شارع قصر النيل، القاهرة
تليفون / فاكس: ٥٧٩٧٧١٠ (٢٠٢)
www.darmerit.com
merit56@hotmail.com

الغلاف : أحمد اللباد

المدير العام : محمد هاشم

رقم الإيداع: ٢٠٠٥/٣٨٩٢

الترقيم الدولي: 977-351-119-7

arabworldbooks.com

سحر توفيق

رحلة السمان

رواية

دار ميريت
القاهرة ٢٠٠٤

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

قال: لا تغسلى الأوانى بالسلك، فأضراره كثيرة.

قال أيضا:

ذرات السلك المعدنى تدخل بين ذرات الأوانى ثم تختلط بالطعام الذى يطبخ فيها ثم تدخل إلى معداتنا وتصدأ هناك، أهتم كثيرا بخلو الطعام من التلوث.

قال ذلك يوما، لكنه مات.

قالت: سأحافظ على أسنانى نظيفة دائما، ولامعة.

قالت: المهم الأسنان.

قالت ذلك يوما، ولكنها ماتت.

قال: الحياة أصعب من أى شىء آخر.

أنا لا أستطيع تحمل ثقل الحياة.

وانتحر.

قال: سأفعل كل ما تطلبون، كل ما تريدون.

سأريحكم جميعا

وبعد ساعة واحدة مات.

قال: من أنت؟ ومات

قال: أحب الاقتحام، الجرأة، المواجهة، الحياة

arabworldbooks.com

ولكنه أيضا مات.

قال: كيف يموت؟ لم يكن قويا بما يكفى .. لقد ضعف، الموت ضعف.

ومات

* * *

والقاهرة تزداد ازدحاما.

وسماؤها تزداد حلكة، سماؤها الرمادية تزداد حلكة.

arabworldbooks.com

الفصل الأول

- ١ -

ما الذى جاء بعبده الفخرانى إلى هنا؟ هنا بالذات، هذا المكـــان خاصة، وأى بلد أو أية مدينة أو قرية من بلاد أو مدن أو قـــرى الصعيد قذفت به إلى هنا، وهل لو بقى فى بلدته ولم يخرج منها، هل كان ذلك يغير شيئا من حال هذا المكان الذى أصبح عبده الفخرانى أحد أهم معالمه؟

يذكـــر مجـــدى أنـــه اعتاد أن يضع علامة عند رأس الشارع المؤدى إلى الحى الذى يسكنه عند قيامه برسم خريطة لموقـــع بيـــته لأى مـــن أصدقائه أو معارفه، هذه العلامة كان المكـــتوب عليها دائما "فخرانى"، ولم يعرف أبدا هل كان لذلك تأثـــير مـــا علـــى التحولات التى مر بها عبده الفخرانى طوال سنوات وجوده فى مكانه هذا؟ أو لربما كان هو له تأثيره على أحد أبناء مجدى نفسه بشكل غير مباشر أو مباشر.

سنترك الحكم على هذا الأمر لحين يأتى ذكره، ولماذا نتعجل الأحداث؟ لدينا الوقت الكافى والزمن الكافى، فلقد وضح تماما الآن أن النبوءة التى قال بها نوستراداموس لم تتحقق هذا العام على الأقل، وربما يعنى هذا أن لدينا متسع من الزمن قبل أن تقوم الحرب الثالثة والأخيرة، ما يكفى لكى نحكى ونروى،

arabworldbooks.com

هذا بالطبع إذا كان أحد المتلقين المبجلين يصدق أيا من نبوءات نوستراداموس.

ولكن، لابد لنا أن نذكر أنه فى بداية الأمر، أعنى عندما كان مجدى فى بداية وجوده هناك، وفى بداية رسمه لهذه الخرائط لأصدقائه ومعارفه، كان عبده الفخرانى لا يملك أكثر من بيت صغير فقير لا يمكن مقارنته الآن وبأى حال من الأحوال بالمكان الشاسع الواسع الذى أصبح له، فى نفس هذه البقعة، وبعد مرور كل تلك السنوات. ولكن أيضا، لا يمكننا أن نقطع بأن رسم تلك الخرائط كان له علاقة بكل ذلك، فالأسباب كثيرة وعديدة. وعلى أية حال الأوراق كثيرة، ولا يضيرنا أن ننتظر.

وربما أن الأمر لم يكن مجرد رسم الخريطة، ربما كان أكثر من ذلك، ربما كان ذلك المجلس الذى ينعقد، أو أصبح ينعقد أمام محل القلل، أو الفخرانى، وربما كان منذ ذلك اليوم الذى خرج فيه مجدى لأول مرة، بعد أن سكن المنطقة، يتمشى، ويتأمل فى شارع الهرم الساحر، حين كانت الأشجار الضخمة على الجانبين لا تزال تظلل الشارع.

ما علينا، نرجع الآن إلى سؤالنا الأول، وفى الحقيقة أن هذا السؤال الأول لم يكن من الممكن أن نسأله لولا أننا نعلم أنه ليس من أبناء المنطقة، ولهذا فرغم أن الكثيرين من أبناء العائلات هنا يعرفونه ويزورونه، بل إن جلسته تلك على قارعة الطريق قد تحولت بمرور الوقت إلى جلسة جماعية يتجمع فيها

arabworldbooks.com

عدد من أبناء المنطقة، إلا أن عبده الفخرانى لم يكن ينتمى إلى النـــزلة من قريب ولا من بعيد. وظل يحكى عن قريته البعيدة الـــتى جـــاء منها ذات ليلة، وعن والده الذى كان يعتبره رجلا عظـــيما بكـــل المقاييس، حتى أن مجدى سأل نفسه، هل هكذا الرجال دائما، يظنون الأب هو أعظم الرجال؟ لكن مجدى، هو نفســـه، والـــذى كان يرى أباه أيضا، رحمه الله، رجلا عظيما، وجـــد أن زوجته الطيبة كانت أيضا ترى أباها، الفران، أعظم الـــرجال. مـــا علينا، المهم أن عبده ظل غريبا، ليس من أبناء القـــرية علـــى أيـــة حال، ولهذا ظل هناك على رأس الطريق المؤديـــة إلى القرية يشرف على حديها الشمالى والشرقى، ولا يحـــاول أن يوجد لنفسه مكانا داخلها، فى الحقيقة ما الداعى له لأن يفعـــل شـــيئا من ذلك وهذا المكان يوفر له الكثير جدا كما سنعرف، ولكن ظن البعض أنه بقى فى هذا المكان لأنه غريب، وزيـــن الغـــرور لبعضهم أن جماعة أهل القرية استطاعوا أن يحدوا من حركته نحو القرية، ونجحوا.

نعـــود ونقول أنه، على أية حال، ليس هذا موضوعنا الآن، إنمـــا السؤال كان ما الذى جاء به إلى هنا؟ ولكن قبل أن نحـــاول الإجابة على هذا السؤال، لعل سؤالا بديهيا يطفر إلى أذهاننا ويأخذ مكانه فى المقدمة والأولوية، ألا وهو : متى؟

ولا يعـــرف مجدى على وجه التحقيق متى جاء عبده الفخرانى إلى هنا، عند هذه الناصية من القرية، لكنه يستطيع أن يؤكـــد أن هـــذا كان فى وقت ما من عام ٦٧ نفسه، فذلك هو

arabworldbooks.com

الوقت الذى كثر فيه التهرب من الخدمة العسكرية بين أبناء الريف والصعيد، فالحرب طويلة، ومن يدخل لتأدية الخدمة العسكرية لا يخرج منها، ولا يُعرف متى يعود إلى حياته المدنية، بل ولا يعرف إن كان سيخرج منها سليما، أو حتى حيا فى ظروف حرب طالت إلى مدى لا يعرف له آخر.

وعندما يقول مجدى ذلك فهو لا يبعد عن الحقيقة التى أخبره بها عبده بنفسه، كان مجدى فى ذلك الوقت قد خرج إلى الجامعة، وتزوج من إحدى بنات القرية، كانت قصة غريبة بالفعل، من كان يصدق أن مجدى، ابن التاجر المغمور فى أحد أحياء السويس، ينتهى به الحال هنا، فى هذه القرية البعيدة، بعيدا عن أهله ومدينته، القرية التى لم يسكن فيها إلا لأنه وجد سكنا رخيصا، وهو طالب فى الجامعة، كان أيضا من مميزاتها أنها قريبة من الجامعة، لم تكن قريبة جدا بالطبع، ولكن كان لها مواصلة واحدة ورخيصة توصله إلى الجامعة. وفى ذلك الوقت، كانت المنطقة يغلب عليها الطابع الريفى بالفعل، ولم يكن هناك الكثير من المنازل الموجودة الآن فى شارع الهرم وما حوله، إنما كانت المزارع هى الغالبة، وكانت ترعة المنصورية لا تزال ذات مياه رائقة، لم تعكرها نفايات البيوت التى ازدحمت الآن بها المنطقة، حول الترعة وفى أعماق المكان.

والحكاية أن زوجته تلك كانت فى ذلك الوقت ابنة رجل يمتلك فرنا للخبز البلدى، وكان هو الرجل الذى يسكن مجدى غرفة فى منزله، فى الطابق الثالث، كان المنزل يتكون من

arabworldbooks.com

ثلاثة طوابق، فى الطابق الأرضى، كان هناك الفرن. وفى الطابق الأول، كان يسكن الرجل الذى أصبح فيما بعد حماه، وفى الطابق الثالث كانت هناك غرفة للغسيل، وسطح واسع تربى فيه ربة البيت بعض الدواجن والأرانب والحمام أيضا، وكانت غرفة الغسيل هذه هى التى سكنها مجدى.

- ٢ -

جاء مجدى إلى القاهرة ليتعلم فى الجامعة، وفى البداية وجد سكنا مع بعض زملائه بالقرب من السيدة زينب، وبعد أقل من عام كانت هناك حرب ٦٧، تلك الحرب التى انتهت به إلى اليأس المرير.

كانت الجامعة تتقد، البلد كلها تموج، لكنه لم يكن ليهتم. كان همه الأول أن يرجع، وبسرعة إلى السويس، ليطمئن على أهله. أو بالأصح على أمه، التى كانت فى الحقيقة كل أهله.

كانت أمه قد بقيت فى السويس لتدير الدكان، الذى تركه لهما أبوه، ومصدر دخلهما الوحيد. لكن البيت والدكان وأمه اختفوا جميعا إثر غارة ما، ولم يجد أيا من السكان السابقين الذين غادروا المنطقة إثر الهزيمة، لم يجد أحدا يحكى له أو يدله على شىء، كل ما وجده كومة من الحجارة مكان البيت. وظل مجدى لعدة سنوات يعاود الرحيل إلى السويس والوقوف أمام المكان متسائلا عما حدث، ولم يكن هناك من يجيبه.

arabworldbooks.com

اختفت أمه، وظل مجدى لا يعرف شيئا عما حدث لها إلى أن التقى ذات يوم، مصادفة، بأحد جيرانهم الذى كان يسكن بيتا قريبا، وقد هاجر من المنطقة بعد الهزيمة. أخبره هذا الجار أن أمه تزوجت من جارٍ لهم قبل الحرب بأيام، ورحلت مع زوجها بعد أن أُنقذا بأعجوبة من الكارثة، ولا يعرف أين هما الآن. قصة عادية وتافهة تكررت كثيرا بكل ما فيها من عبثية.

وفقد مجدى السكن مع زملائه لأنه لم يستطع دفع الإيجار، وفى بحثه عن عمل يتعيش منه، أرشده زميل له إلى ذلك الفرن فى النزلة، عمل فى الفرن وسكن فى غرفة السطوح. ولم يكن هذا الزميل الذى اقترب منه فى أيام الدراسة الجامعية سوى خالد، ابن الحاج نبيل، رأس عائلة من العائلات الكبيرة بنزلة السمان.

وبعد أن تناوبته الخيبات التى لم يجد لها علاجا، ولم يصل إلى نهاية لوقعها عليه، لم يجد سبيلا إلا أن يتزوج ابنة الفران الذى وعده بالإنفاق عليه وعلى زوجته طوال سنوات الجامعة، كانت البنت جميلة وطيبة، وكان الفران غريبا أيضا، ورغم أن له بالقرية سنوات طويلة، ربما كان مولودا بها، لكنه كان يعتبر غريبا، فلم يكن ينتمى على أية حال لأى من العائلات الشهيرة والكبيرة فى القرية، وهكذا لم يكن ليجد زوجا لابنته بسهولة، لكنه وجد مجدى، كما وجده مجدى.

وكان الفران غريب الأطوار، لم يقبل بتزويجها من ابن عمها، رغم أنه صعيدى، ورغم ما يقال من أن الصعايدة لا

arabworldbooks.com

يـزوجون بـناتهم من الغريب، وإن كانت الحياة فى المدينة قد أفسـدت الكثـير مـن تلك العادات القديمة. إلا أنه كانت هناك أسباب أخرى لدى هذا الفران، عرف مجدى فيما بعد أن خلافا قديمـا نشـب على ملكية الفرن بينه وبين أخيه، ولم يقبل بابن عمها خشية أن يتحين فرصة للاستيلاء على الفرن، على اعتبار أنه يخص والدهما أصلا.

وأمـا مجـدى، فقـد وجدها فتاة رقيقة وطيبة وجميلة أيضـا، مـا المشكلة أن يتزوجها، لولا أنها كانت تبدو ضعيفة البنـية، لكـن لـم يبد أن ذلك عيب كبير، وعلى العكس، كان ضـعفها هـذا يعطـيها أنوثة فى نظره ويجعله أكثر إحساسا برجولـته. وفكـر مجـدى أن الفـران وهو يعرض عليه هذا العـرض قلل من قيمة ابنته، لكنه لم يهتم. فالبنت أعز من ذلك مهما حدث، وهذا العرض يرضيه كثيرا.

وهكـذا فإنـه كان فى بداية دراسته الجامعية عند قيام الحرب، أو حدوث "النكسة" بمعنى أصح، يذكر ذلك تماما. فى سنوات حرب الاستنـزاف كانوا يأخذون الطلبة إلى معسكرات التدريـب علـى المقاومـة الشعبية، والطالبات إلى معسكرات التمريض، أما مجدى فلم يتمكن من المشاركة فى أى نشاط من هذا النوع، كان يعرف أنه ليس من حقه أن يفعل أى شىء من شأن أن يصرفه عن إنجاز مهمة التعليم، ففى رقبته زوجة، ثم زوجة وطفل، طفلين.

arabworldbooks.com

كان الأمر قد وصل إلى ذلك الحد فى عام ١٩٧١، بعد زواجه بأقل من سنتين، فقد كانت زوجته، نورا، شديدة "الخصوبة"، تنجب طفلا كل عام والحمد لله. وأصبح أبوها شديد القلق لأن الإنفاق يزيد كل يوم بسبب الأطفال، وكان يقول له:

"ماذا تفعل؟ ألا تلتفت لدروسك قليلا؟ كثرة الإنجاب هذه ستضيعنا."

وكان مجدى يقول:

"أنت تعهدت بالإنفاق حتى أنتهى من دراستى."

وكان الفران يهز رأسه قائلا:

"كنت أظنكما اثنين، الآن أنتم أربعة، هذا كثير."

وكان مجدى يهز رأسه أيضا قائلا:

"هذه ابنتك، هى التى تنجب، قل لها أن تتوقف عن الإنجاب، لا أفهم ما معنى هذه الخصوبة فى زمن القحط والجفاف...."

لم يكن ممكنا للفران البسيط التعلم أن يساير مجدى، ولهذا كان يتوقف عن المجادلة، ويترك أمره لله.

لكن نورا، الوديعة الرقيقة، كانت تحس بالذنب عند سماعها مثل هذا الحديث، وإن كان هذا لا يدفعها إلى أىّ فعل، وكانت تقول لمجدى أحيانا:

"هل أنت متضايق حقا من أبنائك؟"

فكان يضحك ويطيب خاطرها، فى الحقيقة كانت أطيب من أن يغضب منها، وفى ذلك الوقت لم تكن برامج تنظيم

arabworldbooks.com

الأسـرة العصـماء قد وصلت إلى وجدان الناس وخاصة فى الأطـراف النائية لما سُمِّى فيما بعد بالقاهرة الكبرى، وبالتالى أنَّـى لها أن تصل إلى نورا التى ما نالت حظا من التعليم، ولا حتى إلى مجدى نفسه الذى فقد كل شىء قبل أن يبلغ العشرين من عمره.

ولكن هذه الفتاة الطيبة كانت ذات جمال ما، كان مجدى ينظر إليها بسعادة وهى تتحدث بتلك اللهجة الصعيدية رغم أنها لم تر الصعيد أبداء فى حركتها البسيطة فى أنحاء الغرفة اليتيمة الـتى عاشا بها حتى تخرج هو من الجامعة وعمل مدرسا فى المدرسة الإعدادية المطلة على طريق زغلول، ولم يمض على عملـه بالمدرسـة الكثير حتى بدأت تذوى. وقضى عدة أشهر ضـائعا بها بين المستشفيات والأطباء والتحاليل، وترك أولاده الأربعـة لحماتـه تربيهم كما تربى طيورها على سطح البيت. وعـندما ماتت نورا، أصيب مجدى بحالة يأس شديدة، وساءت العلاقـة بينه وبين حميه، كان من الصعب أن يفكر ماذا يفعل، وهل يمكن له أن يربى أربعة أبناء وحده بمرتبه الهزيل ودون امرأة إلى جانبه.

أدرك مجـدى الدور الذى كانت تقوم به نورا حتى فى مرضها عندما أغلق باب الغرفة على نفسه وعياله الأربع، ولم يطق ساعات قليلة رغم كل شىء، فتح الباب وخرج وهو ينادى حماته لكى تنجده.

arabworldbooks.com

فـــى تلك الليلة، ذهب مجدى إلى عبده، جلس معه أمام أرفـــف الفخار المرصوص فى واجهة المحل، وبدا كما لو كان لا يريد العودة أبدا.

وانطلـــق يـــتحدث مـــع عبده، ويفرغ داخله المكدس بالهموم.

كان لا ينفك يقول لعبده:

"لـــم أدعها، لم أطلق عليها أبدا ذلك الاسم الذى يطلقه الشـــبان عـــادة على فتياتهم، ذلك لأنها - أبدا - لم تكن فتاتى، وإنما بدأت هكذا، امرأتى."

- ٣ -

فـــى تلـــك الليلة جاء حمد أيضا، كان قد أصبح صديقا لهمـــا، فتى يدرس فى قسم التاريخ بكلية الآداب، ويبدو أن هذه الدراســـة لم تأت من فراغ، فهو يعرف الكثير بالفعل عن آثار المـــنطقة. كان من عائلة كبيرة فى النـــزلة، يعيش مع أهله فى بيـــت يبدو أشبه بالقصر، وإن كان السور النامى من شجيرات عنب الذئب ذات الرائحة المميزة، تلك الشجيرات القصيرة التى لا تعلـــو حـــتى تحجـــب ما خلفها، هذا السور الواطئ الذى لا يحجب مشهد المنزل الفخم كان يجعله أقرب شبها ببيت مفتوح لا يغلقه الغموض.

arabworldbooks.com

كانت بداية تعرف مجدى على حمد صبيا صغيرا يأتى أحيانا مع أخيه خالد، صديقه الذى أرشده إلى النزلة فى البداية وقبل إرساله اللحية ثم سفره إلى البلاد التى عاد منها شخصا آخر. كان خالد يأتى ومعه أخيه الصبى حمد، يجالسهم أمام محل عبده الفخرانى. وعندما سافر خالد، اختفى حمد تقريبا ولم يعد مجدى يراه إلا مصادفة فى شوارع النزلة، لكن بعد فترة بدأ حمد يمر عليهم فى المساء ويلقى التحية. فلما دعوه للجلوس، جلس قليلا فى وجل، لكن بعد فترة بدأ يجلس بالفعل، ويتحدث، ويستمع. بدأت الصداقة تتعمق بين حمد ومجدى وعبده، وأصبح بعد حين من رواد الجلسة المسائية الدائمين.

كان مجدى مغرما بتأمل جلسات النساء أمام الأبواب الداخلية لبيوتهن، وغالبا فى تلك الشرفات التى تتميز بها البيوت القديمة الكبيرة، أو فى أحواش المنازل الأقل مساحة والأكثر فقرا فى الغالب، تلك الجلسات التى كان يمكنك، فى بعض أمسيات الصيف، أن تراها من الأبواب الخارجية المفتوحة للبيوت القديمة ذات الأحواش الداخلية التى تلى باب المدخل. وفى شرفة بيت حمد بوجه خاص، الشرفة الكبيرة الواسعة ذات الأعمدة، والتى كان يعجب بها كثيرا لتكوينها المعمارى البديع، كان مجدى يرى تلك الشرفة من بعيد ويعجب من شبهها بشرفة بيت عمدة فى قرية ما. شرفة تشعرك بالألفة والحميمية، رغم دلالتها على الثراء الواسع.

arabworldbooks.com

تـــرتفع الشرفة عدة درجات عن الأرض، وتحتها تبدو نوافـــذ صـــغيرة مقفلة، تظللها الأتربة الرطبة، من بعيد يتخيل رائحة العفن والرطوبة فى البدروم، ويسأل نفسه:

"ترى ماذا فى هذا البدروم؟"

همس له عبده ذات مرة:

"يقولون أن هناك كنـــزا فى هذا البدروم."

دخل مجدى البدروم يوما مع خالد، الأخ الأكبر لحمد، كـــان ذلـــك قبل أن يسافر إلى الخليج ويرجع وقد أطال لحيته وانقلـــب حاله. المهم أنه فى ذلك اليوم أنزله إلى البدروم ليريه بعض الكتب القديمة التى كان يحتفظ بها والده، قلب مجدى فى الكتـــب ودهـــش. ها هى بعض "أمهات" الكتب كما نطلق على الكتـــب التراثـــية القديمة الكبيرة. وأدهشه أن الحاج نبيل والد حمد، لم يكن يبدو شخصا محبا للثقافة، ولو التراثية. هذا الرجل لا يبدو له شاغل سوى ممارسة مهامه العديدة التى وضعها على كاهلـــه كونه أكبر أخوته والذى يمسك مفاتيح ثروة العائلة فى يـــده، بكل ما فيها من مشاغل تجعله يبدو غير قادر على قراءة كتاب. كان هذا هو الظاهر، لأن مجدى رآه يوما بنفسه يجلس معهم ويمسك بيده رواية قصيرة لا تزيد على مائتى صفحة من القطع الصغير، وأتى عليها قبل أن يقوم من مكانه فى زمن لا يـــزيد على الساعة. مثل هذه المواقف الصغيرة جعلت مجدى، فـــى تأملـــه لمحـــيطه الـــذى أصبح وطنه بعد انقطاع علاقته

arabworldbooks.com

بالسويس، جعلته يرى فى الحاج نبيل رجلا لا يُستهان به رغم ما يبدو عليه من لا مبالاة إلا بأمور أعماله الكثيرة.

هز رأسه قائلا لعبده الفخرانى:

"ليس إلا بعض الكراكيب. هذه عادتنا نحن المصريين، نحب الأشياء القديمة ونحتفظ بها. نخلق لها مكانا فى بيوتنا وفى قلوبنا أيضا."

ابتسم عبده وهو يقول:

"القديمة نعم، نحب الأشياء القديمة، لكن بعض الناس يحبون الكنوز القديمة أيضا."

قلنا إنه فى تلك الليلة، جلس مجدى عند عبده على قارعة الطريق، ولحق بهما حمد، والذى كان قد أصبح صديقا لهما رغم أنه يصغرهما ببضع سنوات. وفى الحقيقة كان تعويضا طيبا عن أخيه الذى ابتعد وطال به الابتعاد، بالسفر مرة، وبالتحول عن صداقتهم وحالهم مرة أخرى. صنعت أم منصور لهم شايا وجلسوا يتسامرون، لم يكن ثمة فارق بينهم إلا أن عبده لم ينل حظه من التعليم، لكن جلسته، والشيشة، وبعض الورد على رأسها، كان يجعل الليلة طيبة، ويجعل احتمال الاستماع إلى حكايا عبده ممكنا. فى الحقيقة أن هذه مزحة فقط، فقد كانت حكايا عبده دائما ممتعة.

الحكاية رواها بنفسه، فى تلك الليلة، وسمعها مجدى وحمد منه على السواء، كانت امرأته حاملا فى طفلها الثانى عندما جاء شيخ البلد وأخبر والده أنه مطلوب للتجنيد، قرر

arabworldbooks.com

عـبده الهـرب من القرية تحت الظلام وقبل أن يأتى الصباح ويسـلم نفسه للعمدة، خرج تحت جنح الظلام مع امرأته تحمل طفلها، ويحمل كلاهما صرة صغيرة وضعا فيها كل ما يملكان.

كان عبده ولدا مارقا، وربما مدللا بعض الشيء، ورغم أنه خرج من المدرسة وهو فى العاشرة من عمره، إلا أن كثرة سـهره فى المقهى الذى لم يكن يزيد على زاوية صغيرة خلف دكان البقال فى القرية، مع أصحابه من اللاهين من أبناء البلد، هـذا السـهر هو الذى "فتح عينيه" على مشكلة التجنيد فى ذلك الوقت، فقرر ألا يدخل الجيش أبدا.

ربما كان مخطئا، لقد فكر فيما بعد أن ذلك كان خطأ، لكن أشياء كثيرة جعلته يفعل ذلك، أولا معرفته بأن وضعه فى الجيش، وهو لم يتعلم، سيكون صعبا، وخاصة فى هذه الظروف الحـرجة من وجود حالة حرب فى البلاد. والأمر الثانى هو ما سمعه من حكايات زملائه عن سوء معاملة رؤسائهم وزملائهم و"الرتب" فى الجيش وأشياء من هذا القبيل. فى ذلك الوقت، لم يكن سنه يزيد على التاسعة عشرة، وكل ما اجتمع فى رأسه هو رغبته فى الفرار من هذا التجنيد.

قبل الخروج قال لوالده إنه يريد بيع بضعة الأسهم التى يملكها أول عن آخر من الأرض فى زمام القرية، اشتراها والده ودفع له ثمنها، جنيهات قليلة، وصحب عبده طفله وامرأته وما فى جوفها إلى الطريق.

arabworldbooks.com

كـــان مجـــدى يفكر متعجبا وهو ينقل بصره بين عبده النحـــيل الـــذى يميل إلى القصر، وامرأته ذات القامة الطويلة والجســـد الممتلئ والذى زاد امتلاء على مر الزمان، فهو نفسه على العكس، له قامة تتميز بالطول وبعض الامتلاء – ظل على نفـــس القـــدر مـــن الامتلاء لم يزد – بينما كانت امرأته نحيلة قصـــيرة ذات وجـــه غائب اللون فى أغلب الأحيان، ولم يكن يعـــرف، رغم ملامحها الجميلة، أن غياب اللون هذا له معنى، إلا عندما بدأت تهاجمها الآلام الحادة فى أيامها الأخيرة. أمّا أم منصـــور فقـــد كانت بيضاء، بل إن عينيها كانتا زرقاوين، أو رماديتيـــن، فـــى الحقيقة كانت تبدو فى حالة تتغير بين الحين والآخـــر، عيـــنان بهذا اللون، محاطتان بخط أسود من الكحل الثقيل دائما، الحق أنهما كانتا تبعثان على العجب، فأهل الصعيد أغلـــبهم يتمـــيزون باللون الأسمر، والعيون السوداء أو العسلية على أكثر تقدير.

فهـــل هذا هو ما أتى بعبده إلى هنا؟ ربما، وربما كان شيئا آخر لم يذكره أبدا. فقد ذكر أسبابا عديدة فى مرات مختلفة لأشـــخاص مختلفين، أما السبب الحقيقى لهربه، والذى لم يحكه له فى الحقيقة فقد يكون أى شىء، كأن يكون مديونا بدين كبير، أو عليه ثأر، أو غير ذلك.. الله أعلم.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل الثانى

- ٤ -

جلس عبده على الرصيف المتسع لشارع الهرم أمام المحل الذى أصبحت واجهته تمتد لأكثر من عشرة أمتار، واجهة من الأرفف المتعددة التى تحمل أشكالا مُختلفة من الأوانى الخزفية الملونة لشتى الاستخدامات، وعلى قمة الواجهة رُصّت القلل الفخارية، لم يتمكن من أن يتخلص من هذه القلل أبدا، بل إنه مازال حتى اليوم لا يشرب إلا من القلة، وأمام المحل وضع زيرا تحت الشجرة الصغيرة التى زرعها بدلا من تلك الأشجار الكبيرة التى تم قطعها بهدف "تجميل" شارع الهرم على يد المثال المرحوم فتحى محمود.

تأمل شجرة الفيكس الصغيرة التى أحاطها بسور حديدى يرتفع حتى فروعها القريبة، فلم تكن الشجرة الضعيفة تزيد كثيرا على قامة الإنسان البالغ، تنهد عبده، منذ زرع هذه الشجرة وهو يُعانى الكثير، فالجميع يتعامل معها وكأنها العدو، الصبية الصغار يقطعون فروعها النحيلة لاستخدامها كأسلحة فى معاركهم الصغيرة، وحتى البالغون لا يحفلون إذا فعلوا ذلك كنوع من التسلية "البريئة" وهم واقفون على المحطة ينتظرون سيارات السرفيس أو الحافلات التى تقلهم إلى الجيزة ووسط

arabworldbooks.com

البلد. وإذا زنقت أحدهم الرغبة فى قضاء الحاجة، لا يجد إلا الشجرة، ربما يقول الواحد منهم لزميله باسما: "عن إذنك، سأروى الشجرة".

وإن كان هذا المشهد قد أصبح نادر الحدوث بعدما ازدحمت المنطقة فى السنوات الأخيرة، وأصبح الفاعلون من هذا النوع يبحثون فى العادة عن شجرة متوارية إلى حد ما. فشارع الهرم فى هذه المنطقة أصبحت تضيئه المصابيح الكبيرة ذوات الضوء الأصفر الباهر، وأصبح لا يخلو من المارة فى أية ساعة من ساعات الليل أو النهار. كما أن الجلسة أمام محل الفخرانى كانت تمتد إلى الساعات الأولى من الصباح.

كان صبحى، العامل العجوز، قد أعد له الشيشة، ووضعها أمامه وناوله المبسم، شمر عبده كم جلبابه الأبيض الكالح، وشد نفسا عميقا، ثم ناوله له ليشاركه فى تدخينها، كان صبحى هو رفيق عمره طوال سنوات عديدة، وظل على عادته فى مشاركته التدخين حتى بعد أن بعدت الشقة بينهما فى الهرم الاجتماعى، إلا أن عبده ظل على عاداته مع صبحى، يناديه عم صبحى، ويتقبل منه أن يناديه بعبده دون ألقاب، لكن عم صبحى كان شديد الحساسية، وفى الحقيقة كان قد توقف عن ندائه باسمه مباشرة، وأغلب الحال أن يناديه بـ "يا بنى"، منعا للحرج، خاصة أمام الغرباء.

ويبدو كما لو كان فى الأيام البعيدة المقيمة فى عمق الزمن، عندما جاء عبده مع زوجته من بلدته فى الجنوب، إلى

arabworldbooks.com

القاهـرة، لم يكن قد أنجب إلا طفلا واحدا، ولم يكن زواجه قد مرت عليه سنتان، مدفوعا بالفقر وضيق ذات اليد، باع أسهمه القليلة من الأرض، وحملا متاعهما القليل، وانطلقا إلى أم الدنيا.

كـان يحمـل صرة ملابسه، وكانت أم منصور تحمل مـثلها، فـي يد، وتسند باليد الأخرى ولدها الجالس على كتفها يـنظر إلى الناس من عل. كان منصور الصغير لا يزيد على السـنة مـن عمره، تتقدمها بطن مليئة فى مشهد يوحى ببطن ولادة، وصحة طيبة.

نزل فى محطة الجيزة، وشق طريقه بثقة، وهى تلاحقه فـي إصـرار على ألا يختفى عن بصرها بين الخلق الكثيرين الذين يموج بهم الميدان.

كـان يـريد مصـر القديمة، وكان يعرف أن محمود العربجى يقف بعربته بالقرب من المحطة فى كثير من الأحيان بحثا عن توصيلة يخرج منها ببعض الرزق. وفى مرات عديدة سابقة قابله هناك وأوصله إلى مصر القديمة. كانت عدة عربات كارو واقفة على الجانب الأيسر، وفى المقهى كان يجلس بعض العربجية.

لكـن محمود العربجى لم يكن قد جاء بعد. قال له أحد العربجـية أن ينـتظر قلـيلا، فلابـد أن يـأتى. أجلس المرأة علـى مقعد خارج المقهى وجلس هو مع الرجال. كان عبده قد عـرف محمـود فـي الفواخـير حيث يأتى ليحمل الفخار فى عربته.

arabworldbooks.com

لـم يمـر وقت طويل حتى جاء محمود، تبادل بضع كلمـات مـع عـبده، الذى أوضح له أنه قد اتفق مع بلدياته، وصديق صباه الذى سبقه إلى القاهرة منذ سنوات أن ينزل فى بيته حتى يرى ما يستطيع أن يفعل، ولما عرف محمود أن عبده في طريقه إلى طلبة، الذى يعمل فى الفواخير، ضحك قائلا:

"بيت إيه يا راجل، هو طلبة عنده بيت؟"

قال عبده بثقة:

"أنا جيت له قبل كدة، وبيِّتْ عنده كمان."

قال محمود:

"لازم كـان فى الأودة اللى كان مأجرها من أم سعاد، لكنه تركها الآن، فقد مرت فترة دون أن يدفع الإيجار، وطردته المرة المفترية."

أركـب المـرأة والطفـل على العربة وإلى جوارهما صـرتى الملابس اللتين كانا يحملانهما، وجلس هو إلى جوار محمـود الذى هز كرباجه فى الهواء وشد اللجام ليبدأ الحصان العجوز فى السير ببطء وتكاسل.

وقال عبده:

"رزقى ورزق عيالى على الله."

ساد بينهما صمت لفترة، ثم قال محمود:

"إنت لازمك سكن؟"

قال عبده:

"طبعا، لكن الحقيقة ليس معى نقود تكفى لإيجار بيت!"

arabworldbooks.com

"ومـــن تحدث عن البيت؟ أنا هاسكنك فى أودة كويسة، عند واحد معرفة، إنما طيب قوى."

قال عبده:

"ومالـــه؟ حـــتى لو كان طلبة لسه فى بيته، أنا برضه لازمنى أودة عشان العيال."

"بقول لك ساب الأودة، دلوقت هو بيبات فى الفاخورة، آهـــو بـــيرمى جتـــته جنب الدولاب اللى شغال عليه بالنهار، وصاحب الفاخورة مبسوط، بيقول آهو يحرس الفاخورة بالليل."

وصلا إلى مصر القديمة، ودخل العربجى موجهْا البغل العجـــوز بيـــن الحـــارات الضيقة بعد أن أعطى ظهره لجامع عمـــرو، وهـــو لا يكف عن تبادل السلامات مع كل من يلقاه، وقال موجها الحديث لعبده:

"الـــنهاردة البلد زحمة، فيه ناس جم من القناة هربانين مـــن الحرب، ولكن الأودة دى ما سكنتش لغاية امبارح، ادعى ربنا ما يكونش حد خدها."

"على الله."

"لكـــن انـــت إيه اللى جابك هنا؟ لا عندكو حرب ولا حاجة؟"

"النصيب."

توقف محمود أمام بيت قديم فى إحدى الحوارى، نزل مناديا صاحب البيت "أبو مسعد"، وسأله عن الغرفة.

رحـــب أبو مسعد بعبده وأسرته، وصعد بهم إلى غرفة فـــى الطابق الثانى، هناك وضع عبده وأم منصور صرتيهما،

arabworldbooks.com

وجلســت أم منصــور على إحداهما بينما خرج عبده بحثا عن بعض المتاع اللازم، لم يكن ثمن بيع أسهمه القليلة يكفى للكثير، فــأخذه محمــود إلى السوق القريبة، فاشترى حصيرة، ووابور جــاز قديــم وطــبقا واحدا، وحلة للطبخ، وكوزا من الصاج، وكوبين زجاجيين. كان هذا هو كل متاع عبده يوم وصوله إلى القاهرة، كما ظل يكرر ويعدد لأولاده بعد ذلك بسنوات.

فى اليوم التالى اتجه إلى الفواخير بحثا عن طلبة، ولم يكــن العــثور عليه صعبا، فقد كان يعرف الفاخورة التى كان يعمل بها قبلا، استقبله طلبة بالأحضان، وجلس يحكى له سوء حظه.

قال له:

"الولية المجنونة طردتنى، علشان ما دفعتش الأجرة كام شهر، طب وهادفع منين؟ الجاى يادوب على قد اللى رايح."

دهش عبده:

"علــى قد اللى رايح؟ يا راجل دانت لا عيِّل ولا تيِّل، بتصرف ف إيه؟"

ضحك طلبة:

"لا يــا شيخ، بقى أنا لا عيِّل ولا تيِّل.. قوم تيجى انت تحاســبنى؟ باصرف! القرش ف إيدى ما بيستريحش، بيطير، وبعديــن هو انا باكسب كام علشان كدة؟ هو الواحد لازم يعيش ع الحديدة؟"

"لأ، لكن توازن أمورك يا أخى!"

arabworldbooks.com

"ولا يهمك، هو انا عاوز البيت ف إيه؟ أنا بانام هنا ف الفاخورة وخلاص، لحد ما ربنا يفرجها، المهم انت ناوى على إيه؟"

"آخر مرة المعلم بتاعك وعد يشغلنى هنا فى الفاخورة، رحت جبت العيال وجيت، إوعى يكون رجع ف كلامه!!"

"لأ، مـــا يـــرجعش ف كلامه أبدا، هوه شاف شغلك ع الدولاب وقال بيجى منك، تعالى اعمل له حاجة على ما بيجى."

جلس عبده على الدولاب، وأخذ قطعة من الطين، لف العجلة وأخذ يشكل القطعة بيديه حتى استدارت ولفت وارتفعت وصارت "قُلّة" رشيقة.

نظر فرحا بعمله، وقال له طلبة:

"مـــش بطـــال، تحـــتاج تتمرن كمان شوية علشان ما تطلعش معووجة كدة، اعمل واحدة تانية."

جـــاء المعلم بعد قليل، ووعده بيومية ثابتة عندما يتقن عمـــل القلـــل، كان هناك دولابين اثنين، وكان طلبة يعمل على أحدهمـــا، وأصبح عبده يعمل على الأخر، ولم يمر يومان حتى كـــان عبده يلف القلة متسقة ومضبوطة، لكنه كان يحتاج وقتا أطول ليصل إلى سرعة طلبة على الدولاب.

كانوا يرصون القلل لتجف، وبعد ذلك توضع فى الفرن ليتم حرقها، ولا يفتح الفرن قبل أن يبرد تماما، كان عم صبحى هـــو الذى يتولى الفرن، وكان خبيرا حقا فى ذلك، يعرف متى توضـــع القلـــل، وكيف ترص بحيث لا تلمس إحداها الأخرى،

arabworldbooks.com

ويعرف كيف يوقد الفرن، ويجلس إلى جواره يمده بالوقيد حتى ينظر من فتحة صغيرة يجعلها للتهوية ويجد القلل قد أصبحت متوهجة تماما، ساعتها يتوقف عن تغذية بيت النار ويجلس ليستريح. ولا يغادر مكانه إلى جوار الفرن حتى يفتح بعد أربع وعشرين ساعة أو أكثر. فى الحقيقة كانت العملية تستغرق أياما، ولا يبدو على عم صبحى أى ملل أو تهاون. فى صمت يؤدى كل مراحل العمل، وفى صمت يرص القلل بعد انتهائها فى المخزن الملحق بالفاخورة.

كان عم صبحى رجلا طويلا، نحيفا، أسمر بلون الطين، له شارب كث تطرق إليه البياض فى سن مبكرة، فقد كان عمره لا يزيد على الأربعين فى ذلك الوقت، رغم أنه كان يبدو أكبر من ذلك، وكان صموتا لا يطيل الحديث. عرف عبده من طلبة أنه تعرض لمأساة عندما انهار بيته الذى كان قد بناه فى نزلة البطران بالهرم. كان البيت لم يرتفع إلا طابقين، بينما كان صبحى ينوى أن يجعله فى يوم ما عمارة عالية. لكن البيت انهار فجأة، وكان قد خرج لصلاة الجمعة، وعاد ليجد كومة من الحجارة والأتربة مكان البيت، دفن فيه أفراد أسرته جميعا، زوجته وطفليه وأمه العجوز. وضاعت تحويشة العمر، فقد كانت ديونه التى بنى بها الطابقين قد بلغت حدا كبيرا مما اضطره لبيع الأرض وتسديد الديون بثمنها، ويبدو أن يأسه حينها جعله يتصرف بهذه الطريقة، ثم ذهب إلى الفواخير، وأصبح لا يغادر المنطقة، كما أصبح قليل الكلام.

arabworldbooks.com

أحـــب عبده عم صبحى كثيرا، كان يجلس معه بعد أن يتناولا غذاء من سندويتشات الفول والطعمية، يشربان خمسينة شـــاى ويدخـــنان ســـيجارة اقترضاها من طلبة، يتشاركان فى تخميسها. كان عبده يحكى له حاله، وربما كان الوحيد فى ذلك الوقـــت الذى عرف مشكلة عبده وتهربه من الخدمة العسكرية، ورغـــم أنـــه لم يكن يعلق كثيرا، وإنما يستمع أكثر إلى حديث عبده، إلا أنه كانت له إيماءات وكلمات قليلة تريحه كثيرا.

ولم تمر أسابيع قليلة حتى كان عبده قد أتقن عمل القلل تمامـــا، وكان المعلم جابر يشجعه ويشعره بفرحه به، فالتصق بالمكان، وأحب العمل حتى أنه كان يسهر أحيانا على الدولاب لســـاعات متأخرة حتى ينتج أكثر. وشجعه أن أم منصور كانت تدبـــر أمـــرها بالقروش القليلة التى كان يعطيها لها، فيعود إلى الغـــرفة فى النهاية ليجدها مرتبة، ورائحة الطعام الساخن تفوح فـــيها، وأحـــس فى ذلك الوقت أن الحياة تعطيه ما يريد، وأن خـــروجه من البلدة مع امرأته تحت جنح الظلام هربا من طلبه للجندية كان عملا ناجحا.

وظل محمود العربجى يأتى من حين لآخر لأخذ القلل، فيساعده فى رصها على العربة، ثم ينطلق بها ليبيعها فى سوق الجمعـــة بنـــزلة السمان حيث كان يقيم، أو فى سوق الأحد فى كرداســـة. وقـــبل أن يذهب، يجلس مع عبده وطلبة، يتبادلون الحديـــث، ويتـــبادلون الســـجائر اللف التى لا يخلو منها جيب طلبة.

arabworldbooks.com

محمـــود العـــربجى كـــان لا يكف عن الحكى، كانت حكاياتـــه الساخرة تزيل الكثير من تعبهما، ويصبح اليوم الذى يـــزورهما فـــيه يوما باسما يتندران فيه بكل ما قال حتى بعد ذهابه.

لكن الزمن لم يكن رائقا دائما، كانت امرأته تدبر البيت قـــدر مـــا تستطيع، بل إنها كانت تشارك ببعض العمل أحيانا، عندما كانت تأخذ بعض قطع الفخار وتجلس لبيعها فى السوق، كان ذلك يشارك فى بعض الأعباء، وكان السوق هناك فى كل جمعـــة، لذلـــك لـــم يكن صعبا أن تتغيب يوما أو بعض يوم، وخاصـــة أنها كانت تصطحب الطفل معها. وعندما وضعت أم منصـــور طفلها الثانى، فى نفس تلك الغرفة الفقيرة فى مصر القديمـــة، لـــم يتوان عبده عن التأخر عن الفاخورة ليجلب لها بعـــض الحليـــب لتشربه كما طلبت، ورغم أنها لم تخرج إلى الســـوق لمدة أسبوعين بعد الولادة، إلا أنها فى الأسبوع الثالث ذهبـــت تحمـــل الرضيع على ذراعها، وعلى رأسها قفص به بعض الأوانى الفخارية، ومنصور متعلق بطرف جلبابها وهى تسأله فى كل دقيقة أن يتمسك به جيدا ولا يفلته.

لكن ما أصعب السكن فى بيت ليس ملكا لك، كان عبده يقول لها لابد أن نبنى بيتنا، لا يصلح أن نظل سكانا عند الغير، لو كنا فى البلد لكان هذا عيبا كبيرا.

وكان عبده يقول:

arabworldbooks.com

"الغـــربة هى أن تسكن فى بيت الغريب، وعندما يكون عـــندك بيتك الحقيقى الذى تملكه لا يهم أىّ شىء آخر، فلا أحد يموت من الجوع."

وكـــان محمود العربجى، رغم أنه يمتلك بيتا فى نزلة السمان، يرد عليه قائلا:

"ليس البيت كل شىء، المهم أن تملك قوت يومك."

كـــان هـــذا ما يهم محمود دائما، ظل يعمل على هذه العـــربة مـــع هـــذا الحصان العجوز لسنوات حتى استطاع ان يشـــترى ســـيارة بـــيك آب، كان هذا يوما مشهودا، جاء إلى الفواخـــير، ودعا عبده وطلبة إلى الركوب معه، وأخذهما إلى شارع الكورنيش، حيث دعاهما إلى مشروب مثلج، على شرف العربة الجديدة.

تـــأمل عـــبده العربة، وفكر هل يمكن أن يمتلك يوما مثلها، كان عليه أن يعمل كثيرا، وأن يوفر كثيرا.

وقال له محمود:

"يوما ما ستمتلك مثلها يا عبده."

كان يقرأ أفكاره، وكأنه ضبط متلبسا، قال:

"مـــبروك علـــيك يـــا محمود، ربنا يبارك لك فيها. أنا صحيح أتمنى أن يكون عندى مثلها يوما، لكن يبدو هذا بعيدا"

قال محمود:

"ليس بعيدا طالما أنك تعمل له."

وقال عبده:

arabworldbooks.com

"البيـــت أولا، لـــن أتمكـــن من العيش طويلا فى ملك الآخرين."

حتى عندما أصبح عند عبده بيته، كان يردد دائما نفس الكلمة. وربما عندما قالها لمجدى، كان مجدى فى أسوأ أحواله، وذلك ما جعله لا يطيق سماعها، وفى ذلك اليوم تشاجر مجدى مع عبده الفخرانى، واتهمه بأنه يقصد الإساءة إليه، وقام مبتعدا عن المكان، وهو يقسم ألا يعود إلى الجلوس عنده مرة أخرى.

مـــا علينا من ذلك فسيأتى أوانه، كما أنه لم ينفذ تهديده هذا على أى حال.

كـــان عـــبده قد راق له العيش فى مصر القديمة، وبدأ يكون صداقات ومعارف من جيرانه وزملائه فى الفواخير، ولم يكـــن قد مضى عليه أكثر من أشهر قليلة، عندما كان يسير فى طـــريقه إلـــى البيـــت مساء، بعد أن انتهى عمله فى الفاخورة، وبالقـــرب من جامع عمرو، وجده أمامه، أحد رجال العمدة فى قريته. فى ذلك المساء لم يكن عبده رائق البال، شرد قليلا حتى وجد الرجل يسلم عليه ويسأله عن حاله، وسأله بين ما سأله:

"وقاعد فين يا عبده؟"

زاد شرود عبده، ولم يعرف بم يجيب، إنه لم يفكر أنه قد يقف مثل هذا الموقف، كان يعرف الغدر فى هذا الرجل، فى الحقـــيقة أن عبده نفسه كان يحس بعدم الأمان، رغم أن الرجل قال له:

"والله كـــنا قلقين عليك يا عبده، أنت تعرف، الحمد لله إنك بخير."

arabworldbooks.com

لكن عبده اعتبر هذه الكلمات إنذارا شديد اللهجة. وكانت الطامة الكبرى. فهذا الرجل من خاصة العمدة، ولابد أنه سيبلغ عن مكان وجوده، فهو اليوم يعتبر هاربا من الخدمة العسكرية، كان ذلك يقلقه بشدة، وفى ذلك الوقت لم يكن يفكر فى تسليم نفسه للخدمة العسكرية فلم يعد بإمكانه ترك المرأة وعيالها فى هذا الحى البعيد وخاصة أنها بلا دار تخصها، وتستطيع أن تحس بالأمان فيها، عاد إلى البيت مرعوبا وحكى للمرأة، قالت له:

"لا تقلق يا ابن عمى، سوف نجد طريقة."

وبعد قليل سألته:

"ألم تقل أن محمود العربجى ما زال يأتى إليكم؟"

كانت هذه هى طريقتها فى إلقاء الفكرة إليه، محمود العربجى، كان دائما شهما وقادرا على المساعدة، كان أحد الصبية فى الفواخير يعرف بيت محمود فى نزلة السمان، ولم يستطع عبده الانتظار حتى الصباح، فأسرع إلى بيت الصبى، وأخذه ليدله على بيت محمود.

ما الذى جعله يهرب من الخدمة العسكرية، أحيانا كان يسأل نفسه، ألم يكن الأفضل له أن يؤديها حتى يستطيع أن يعيش حياته فى هدوء؟ لكن هذا السؤال لم يكن يخطرله كثيرا فى ذلك الوقت، ولم يصبح ملحا عليه إلا عندما كان الأوان قد فات، ولم يعد بإمكانه أن يؤدى الخدمة العسكرية حقا.

وأخيرا وصل مع الصبى إلى بيت محمود العربجى، دق الباب، وخرج له محمود بشحمه ولحمه، ولا داعى لأن

arabworldbooks.com

نذكر أنها كانت مفاجأة مدهشة أن يجد عبده على بابه، لقد كان معهم بالأمس فى مصر القديمة، قال له عبده:

"أريدك فى أمر عاجل."

خـــرج محمـــود وهو يغلق الباب خلفه، شرح له عبده الحالـــة بهدوء، وإن كان فى غاية التوتر، فى الحقيقة لم يخبره أبـــدا أنه هارب من الخدمة العسكرية، لكن محمود كان لماحا، وإن كان لا يعرف الحقيقة بعد، لكنه لمس حالة التوتر التى كان علـــيها عبده على الفور، كل ما قاله عبده أنه بحاجة إلى مكان بأسرع ما يمكن.

ولم يطل الحديث وطلب الشرح، طلب منه محمود أن ينـــتظره لحظات، ودخل ليلبس جلبابا نظيفا، وخرج وهو يضع الكوفـــية علـــى عنقه ويلفها، سار مع عبده إلى داخل النـــزلة، واتجـــه به إلى بيت صغير فى إحدى الحوارى الجانبية، نادى فخـــرج له رجـــل قصير يلبس جلبابا أزرق قديما، تحدث معه للحظـــات، ولـــم يطل به الحديث، فقد عاد ومعه الرجل وقال لعبده:

"ســـتأتى ومعك متاعك، وسيستضيفك عم سعيد إلى أن تجد مسكنا."

شكر عبده عم سعيد، وعادا إلى بيت محمود حيث تركا الصبى ينتظر، وأصر محمود على أن يذهب مع عبده ليعود به وبامـــرأته إلى هنا، جلس عبده إلى جانبه فى العربة البيك آب الـــتى كـــان قـــد اشتراها حديثا، وركب الصبى فى العربة من

arabworldbooks.com

الخلـف، كـان الطريق من نزلة السمان إلى مصر القديمة لا يستغرق أكثر من عشرين دقيقة فى ذلك الوقت، فلم يكن شارع الهرم بهذا الازدحام.

وصلا إلى البيت، وفى أقلّ من ساعة كان عبده جالسا إلـى جواره مرة أخرى، وامرأته تجلس مع ولديها فى الخلف وسـط المـتاع القلـيل الذى يملكه عبده، فى طريقه إلى نزلة السمان. وفى هذه الرحلة أخبر عبده محمودا بالوضع الحقيقى، وبهربه من الخدمة العسكرية وخوفه من معرفة موظفى القرية الحكوميين لمكانه.

اسـتمع محمود صامتا، ولم يقل شيئا. ولم يتحدث فى هـذا الموضوع لفترة طويلة جدا، حتى أن عبده شك فى أنه قد أخـبره بالأمر بالفعل. لكن عندما صدرت بعض التغييرات فى قـانون الخدمـة العسكرية فى الثمانينات، وطلبت الحكومة من المتهربين من الخدمة أن يقوموا بتسوية حالاتهم، ويدفعوا مبلغا كغـرامة، كـان محمـود أول مـن جاء إلى عبده، يطلب منه الإسراع فى الخلاص من هذه الحال الصعبة.

— ٥ —

عـندما وجد عبده نفسه فى نزلة السمان، كان أول ما فعلـه هـو أن أخـذ امـرأته والولدين لزيارة الهرم فى اليوم التالى.

arabworldbooks.com

وهناك، نظر إلى القاهرة من أعلى، كانت المدينة تبدو رائعة من فوق الهضبة. وفى ذلك الوقت كان الجو رائقا، ولم يكن التلوث قد وصل إلى حالة الاختناق البشعة التى وصل إليها فى التسعينات، يذكر عبده أنه شاهد النيل من هناك، شريطا أزرق، وخلفه بدت المبانى صغيرة للغاية. وفى نهاية المشهد كان هناك المقطم يسد الأفق، وخلفه سماء زرقاء بلا نهاية، كانت سماء القاهرة أيضا لا تزال زرقاء.

أمّا الهرم نفسه فقد كان شيئا هائلا، جعل ينظر إليه، لأول مرة يراه، المرأة والطفل أيضا بدا عليهما الذهول من مشهده، حتى الرضيع الذى كانت تحمله، كان عبده يتعجب متذكرا طفله الرضيع الجالس على كتف أمه وهو يحتضن رأسها وينظر نحو الهرم فى دهشة بعينين مفتوحتين، وبدا رغم براءته وسذاجته مدركا أنه أمام مشهد جديد.

وكان هناك ما هو أغرب، جاء مجموعة من الرجال وقفوا تحت الهرم، يتحادثون بصوت عال، وبعد لحظات اتجه أحدهم إلى الهرم نفسه، ولدهشة عبده وامرأته، بدأ هذا الرجل يتسلق الهرم، وفى لحظات معدودة كان على القمة، وأشار بيده من أعلى إليهم، ثم نزل بنفس السرعة التى صعد بها.

فيما بعد عرف عبده أن هذا الرجل يشتهر بهذا الأمر فى النزلة، وأنه يمكنه صعود الهرم حتى قمته فيما لا يزيد على خمس دقائق، وأحيانا كانت تجرى مراهنات بينه وبين بعض الشباب على ذلك. وفى ذلك الوقت، كان لا يزال هناك

arabworldbooks.com

مـــن يتكســـبون كأدلاء يقودون السائحين فى تسلق الهرم حتى قمته، وكان من المألوف أن ترى دليلا من هؤلاء وخلفه سائح أو اثنان يتسلقون الهرم من حين لآخر.

وبينما كانوا يسيرون ناحية أبى الهول، قابل رجلا من حراس المقابر القديمة، قال له الحارس:

"هل تريد مشاهدة المقبرة يا بلديات؟"

ولـــم يفوّت عبده هذه الفرصة، أخذه الرجل إلى مقبرة قريـــبة لهـــا باب حديدى يبدو موضوعا هناك حديثا وعليه قفل كبير مغلق، وكان مع الحارس مفتاح لهذا الباب، فتح وأدخلهم.

كانـــت مقـــبرة صـــغيرة، ولكن جدرانها عليها بعض الرسوم والكتابات، لم يكن عبده يعرف أنها قليلة، فى الحقيقة لم يكـــن يعـــرف ما هذا أبدا، كل ما قابله هناك أدهشه، سار بهم الرجل من مدخل المقبرة إلى ممر صغير محفور فى الجبل، ثم إلـــى غـــرفة واسعة، وهناك، فى وسط الغرفة، أراهم حوضا ضخما من الحجر الأسود، وقال له:

"هل ترى هذا الحوض؟"

نظـــر عبده إلى الحوض، كان مصنوعا من الجرانيت الأسود، كبيرا، وناعم الملمس، قال عبده:

"لأى شىء يستخدم؟"

قال الحارس:

"كان هذا الحوض هو مكان التابوت."

arabworldbooks.com

صاحت امرأة عبده، والتى كانت وجلة أساسا من فكرة دخول المقبرة:

"تابوت؟ يا ساتر!"

ابتسم الحارس:

"هـل تعجبين؟ كانت هذه مقبرة ملكية، هنا كان مدفونا ملك وزوجته أو أمير وزوجته، ومومياواهما موجودتان هنا."

ارتعدت المرأة:

"تقصد جسديهما؟"

كان هذا أول تعرف لعبده وامرأته على الآثار، فى أول يوم لهما فى الهرم.

فى بلدتهما، لم يكن هناك شىء كهذا، وحياتهما السابقة كفلاحين، لم تكن تدعو إلى رؤية أو تعامل مع الآثار، ولم يتعد الأمـر رحلة مدرسية عندما كان عبده فى المدرسة الابتدائية، كـان فى الصف الأول أو الثانى، ولم يوافق أبوه إلا لأن أخاه الأكبر كان معه. كانت الرحلة إلى القاهرة، رأى سقارة. مشهد الهرم المدرج لا ينمحى من الذاكرة بسهولة، ومشهد هذا الهرم أيضـا، هـذا الهرم، لابد، يذكر مشهد الهرم مبهما. لكنه كان صغيرا، ولا يذكر منها الكثير.

بل يذكر، يذكر مشهد المقابر المحفورة فى الجبل، نعم يذكـر أيضا بعض هذه الرسوم المنحوتة على الجدران، لكنها كانـت أجمـل من هذه، وكانت ملونة، يذكر أنها كانت ملونة، نعـم، وأكـثر كثيرا من هذه، كانت هناك جدران عالية تمتلئ

arabworldbooks.com

بالصور الملونة، صور واضحة مفهومة، صور لأشياء يعرفها، طيور وأعضاء جسد، وحيوانات وشكل مبسط لإنسان ما، رجل أو امرأة، نجوم كثيرة زرقاء لا يمكن أن ينسى مرأى هذه النجوم، خاصة في السقف، تملأ جسد امرأة تنحنى فوقهم كأنها تحتضنهم، جسد امرأة مشبوح في سقف مغارة ما في جبل ما، كانت رحلة مدرسية، وكان المعلمون يقولون طوال الوقت:

"هيا .. هيا .. من هنا .. أسرعوا."

وجذبه أخوه الأكبر من يده، وأسرع به مع باقي الأطفال لكي لا يتخلفا عن الجماعة. مشهد المغارة المليئة بالتوابيت السوداء الكبيرة أيضا، أكانت في سقارة؟ لابد، لأنه لم يجد لها أثرا هنا في الهرم.

أمّا المومياء، فقد كانت هذه أول مرة يراها. أول مرة يقترب منها إلى هذا الحد، تحمل ذاكرته أشياء عنها، أشياء مبهمة، لقد خرج من بلدته وهو يعرف أن هناك شيئا كهذا، لكنه يراها اليوم لأول مرة.

دهشة وخوف مجهول المصدر ورثاء من إحساسهما الموروث بحرمة الموت.

وأصر الحارس على أن يكمل:

"ألا تستغربان أن التابوت أكبر من المدخل؟"

قال عبده في دهشته:

"كيف دخل هذا التابوت هنا؟"

arabworldbooks.com

كـــان الـــتابوت منحوتا من قطعة واحدة من الصخر، وكـــان حجمـــه أكبر من المدخل الذى كان منحوتا داخل الجبل نفسه. أثار هذا التنبيه تساؤل عبده، لكن الحارس هز كتفيه، ولم يجـــب علـــى هذا السؤال، فى الحقيقة أنه نفسه لم يكن يعرف الإجابة.

وظل هذا الأمر يشغل بال عبده زمنا طويلا، حتى قابل حمد، وهو الوحيد الذى أجابه بكل بساطة بطريقته التى كان كل شىء يبدو بها سهلا وخاليا من الغموض.

وفى اليوم الأول لعبده فى نزلة السمان، بعد أن عاد من رحلة الهرم التى أسعدت المرأة والعيال كثيرا، سار فى شوارع النـــزلة يحاول التعرف عليها. وهناك فكر أنه يمكنه أن يعيش فى هذا المكان. وفى هذه الجولة التى قام بها فى شوارع النزلة، الـــتقى مرة أخرى بحارس المقبرة، وتحدث إليه، وبدأت بينهما صـــداقة امتدت طويلا. عرف أن اسمه خميس، ووجده شخصا غاية فى الطيبة، وإن كان به نوع من الجنون، أقرب للشعوذة. كـــان خمـــيس يسكن غرفة فى أحد البيوت الفقيرة التى تؤجر غـــرفا، وكـــان يلقى مضايقات كثيرة من جيرانه لأنه أعزب، ولأنه فقير أيضا، فكان يضطر إلى قضاء أطول وقت ممكن فى منطقة عمله حتى بعد انتهاء ورديته. وفيما بعد، كان يمر على عبده فى محل الفخرانى الذى أصبح له، ويسهر معه أحيانا لكى لا يذهب إلى البيت إلا بعد أن يكون الجميع قد ناموا.

arabworldbooks.com

كانت النزلة تجمع بين البساطة والفخامة، وهى المكان الوحيد الذى وجد فيه التحاما بين منازل الأغنياء ومنازل الفقراء، لم تكن منازل الأغنياء فى أحياء منفصلة، وإنما كان يمكن أن تجد قصرا فاخرا محاطا بحديقة واسعة وأسوار عالية، وإلى جواره، إلى جواره تماما، بيت فقير بسيط، من تلك البيوت المبنية بالحجر، وعلى المدخل ذلك الآرش المقوس، بزخارفه المميزة، تلك المداخل الجميلة للبيوت جعلت عبده يتأملها، ولذلك عندما بنى بيتا، حرص على أن يكون مدخله بنفس الطريقة، وكان عمله فى الفخار قد هذب أحاسيسه، وأعطاه قدرة على تأمل أشياء كثيرة، وربما أنه كان بالفعل ذو حس مرهف لكنه كان يحتاج إلى ما يوقظ هذا الحس فى نفسه.

هذا التجاور بين بيوت الأغنياء والفقراء فى النزلة جعله يحس بالمكان دافئا، وتمنى أن يستطيع العيش فيه دائما، لكنه اضطر أن يتحرك قليلا إلى حدود المكان، أطرافه، على شارع الهرم، وأصبحت ترعة المنصورية فاصلا بينه وبين النزلة. ولم يأخذ هذا وقتا طويلا، فى الحقيقة جاء بأسرع مما يتوقع.

لم تمر أيام معدودة على وجوده هناك حتى جاءه محمود فى ذات صباح، وقال له:

"كم معك؟"

arabworldbooks.com

كـــان ســـؤالا غريـــبا، وفى الحقيقة كان عبده قد وفر جنـــيهات قلـــيلة منذ مجيئه من بلدته، ولكن سؤال محمود كان مباشرا، ولما وجده مترددا فى الإجابة قال فورا:

"هناك كشك على شارع الهرم، يمكنك أن تشتريه وتبدأ فيه، مطلوب مائة جنيه."

لـــم يكـــن عـــبده يملك مائة جنيه، لكن المرأة خلعت سوارها، وأعطته له، وضعه على ما تبقى من نقود، وبعد أيام قلـــيلة، تحرك عبده وأسرته إلى الكشك، لم يكن بالكشك سوى القلـــيل ليـــباع، وعليه أن يضيف إليه أشياء ليتمكن من كسب بعض المال، وهنا أيضا ساعده محمود، فى ذات صباح، وجده يقف أمامه بسيارته البيك آب، وقال له:

"هـــيا ســـاعدنى، خـــذ بعض هذه القلل لترصها أمام الكشك."

أسرع عبده وهو يقول:

"لكن ليس معى نقود الآن."

قال محمود ضاحكا:

"إدفع بعد أن تبيع."

ثم قال:

"لا تظـــن أن هـــذا مـــنى، إنه من المعلم جابر، وهو يوصيك أن تجتهد فى بيعها ليرسل لك المزيد."

arabworldbooks.com

ظـل المعلـم جابـر، رغم ابتعاد عبده عن العمل فى الفـاخورة، يسأل عنه ويرعاه، دون أن يراه، فى الحقيقة مرت سنوات طويلة قبل أن يراه مرة أخرى.

ويبدو أن موقع الكشك كان ملائما لبيع الفخار بالذات، المنطقة يمر بها السياح، وهم يدفعون بسخاء. اكتشف عبده أنه يبـيع الفخاريـات ذات الزخارف الشعبية أفضل من بيع القلل والأزيـار، فطلب المزيد منها. وامتدت المصنوعات الفخارية حول الكشك لتحتل حيزا أكبر.

وفـى أول فرصة، نزل عبده إلى مصر القديمة ولف طويلا كى يعود لامرأته بعقد من حبات الفضة، تتوسطه خمس كـريات، ثلاثـة مـن الكهرمان واثنتان من الفضة المشغولة، وظلت المرأة تضع هذا العقد حول عنقها باعتزاز طوال حياتها، فى الحقيقة كان مجدى وحمد ينظران إلى هذا العقد البديع على أنـه من مكونات شخصيتها، مثله مثل تلك الملابس المزركشة التى ترتديها، كانت تحب هذا النوع من الجلاليب دائما، وكانت أليق على عقدها وعينيها المكحولتين دائما بذلك الكحل الثقيل.

كانـت الأرض خلف كشك عبده فارغة، مساحة خالية مـن الأرض الـبور، ليس بها سوى نباتات برية يغلب عليها السـمار، ويغلـب علـى أرضها الماء العطن، مستنقع تملؤه النباتات الشيطانية، وأصوات صرخات الفئران بالليل، والطيور الـتى تقيم أعشاشها داخله خاصة فى الربيع. قام عبده وامرأته بعمـل تعريشـة مـن جذوع الخشب، وغطياها بما لديهما من

arabworldbooks.com

ملاءات، وأصبحا يقضيان اليوم كله تحتها، ولم تمر سوى أيام حتى بدآ يبيتان تحتها أيضا، وبعد قليل بدءا يحولان جدرانها إلى جدران خشبية، ولم يمر عام حتى كان عبده وامرأته قد بنيا جدرانا أربعة، فى نفس المكان خلف الكشك. كانت الأرض فراغا ولم يدع أحد ملكيتها، فلم يجد عبده غضاضة فى فعل ما يشاء.

كان انخفاض الأرض الشديد فى هذه المنطقة سببا فى ابتعاد الناس عنها، فقد كانت الحقول لا تزال تغلب على أراضى المنطقة، وفى شارع الهرم كانت الغيطان أكثر من المبانى، ولم يكن الفلاحون يفكرون فى مثل هذه الأرض المنخفضة غير الصالحة للزراعة، كما لم تكن المنطقة من الازدحام بحيث يفكرون فى استغلالها لإقامة عمائر كتلك التى أصبحت، فى أيامنا هذه، تحيط الطريق إلى ما بعد آخر الهرم، وفى العمق من الناحيتين وإلى مسافة من طريق مصر اسكندرية الصحراوى. ولم تمر سنوات قليلة حتى تحول عبده إلى تاجر ذى مكانة بين تجار الفخار فى شارع الهرم.

وهكذا كان كل ما على عبده أن يفعله هو أن يحمل من حين لآخر بعض الأتربة وبقايا الردم من أية منطقة فى النزلة، أو ما حولها يكومها خلف بيته ويردم بها بعض المستنقع، ويوسع المساحة حوله ليزيد من مساحة التخزين التى يضع فيها القلل والأوانى الفخارية التى ظل جابر يمده بها لسنوات. وليوسع أيضا بيته، الذى أصبح بعد سنوات بيتا

arabworldbooks.com

من البيوت الكبيرة التى يسكن بها أبناؤه وزوجاتهم وأولادهم.

وظل بيته يحتفظ بملامح البيت الريفى من الداخل، ومن الخارج كانت الواجهة التى تغطيها المصنوعات الفخارية والخزفية لا تسمح برؤية الداخل المتسع، وظل يزيد من اتساع المساحة التى يضع سوره حولها حتى أصبحت تزيد على خمسة أفدنة من الأرض الواقعة على شارع الهرم مباشرة.

وبعد سنوات قليلة، استعان بعم صبحى على العمل الذى تزايد وأصبح بحاجة إلى أكثر من شخص، رحب عم صبحى، الذى كان قد أصبح أقل قدرة على إشعال الفرن لما ألم به من داء صدرى جعله يفضل الابتعاد عن عمله الأصلى. إلا أنه لم يبتعد عنه إلى الأبد كما سنرى.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل الثالث

- ٦ -

افتحوا بوابات الخروج
أريد أن أخرج
من كل بوابة أخرج
عبر الأسوار أفوت

كانـــت تلك الكلمات هى افتتاحية الدفتر الخاص بحمد، والذى أعطته أمه لمجدى بعد وفاته بأيام.

شيئان احتفظ بهما مجدى كلاهما يخص حمد.

كـــان الشـــىء الأول هو القناع الخشبى المتآكل الذى أعطاه حمد لمجدى بنفسه.

والشـــىء الـــثانى كان هذا الدفتر، دفتر يوميات قديم، أوراقـــه غير مرتبة جيدا، قالت أمه لمجدى أن حمد احتفظ بهذا الدفتر معه لسنوات طويلة، لا يفارقه فى سفر أو قعود. وقالت له يومها: ربما كنت أنت الشخص الوحيد الذى قد يريد حمد أن يطلع على بعض هذا الدفتر.

ولم يكن هذا الدفتر يحتوى يوميات حقا، لكنه بالأحرى كان يضم خواطر وتعليقات غير مرتبة على أحداث مر بها حمد

arabworldbooks.com

فـــى حـــياته، وربما اعتبرها ذات تأثير أو أنها كانت تلح على ذاكرته فكتب عنها تعليقات وملاحظات من حين لآخر. وعندما قرأ مجدى هذا الدفتر، أخذت تتجمع فى ذاكرته الحكايات التى كان حمد يبوح بها فى جلستهم، فاجتمعت فى ذهنه صورة كاملة عن الحياة القصيرة التى عاشها حمد.

وعـــندما كـــان مجـــدى يقـــص على عبده بعض هذه اليوميات، أو يقرأها له، كانا يتذكران سنوات طويلة من حضور حمد وغيابه.

- ٧ -

أتطلـــع إلى أبى الهول، السقالات الخشبية تحيط به من كـــل جانب، وعمال الترميم يعملون بكلل وملل، وكل تعب باد عليهم،

"لا يصـــيب الـــرجل مـــنا فـــى يومه أكثر من الفول والبصل، والشاى الأسود،"

أين سمعت مثل هذا قبلا؟ بل أين قرأته؟ ألا يشبه قولا أعرفه؟ ألا يشبه السخرة مثلا؟

"أى أهـــرام تلك التى تتحدث عنها؟ لقد بنيت بالسخرة والكرابيج"

احمر وجه الأستاذ عبد الستار معلم التاريخ، كان وجهه يحمر بسهولة بالغة عند أىّ انفعال، ولهذا كان من الصعب عليه

arabworldbooks.com

أن يخفى انفعالاته، لكنها لم تكن خارجة عن سيطرته على أىّ حـــال، فلم أذكر أننى رأيته يصل إلى حدّ التماسك الشائن، ولم يكـــن صـــوته يعلو كثيرا، ذلك كان غريبا، ربما أننى لا أذكر جـــيدا، الذى كان يحدث أن صوته كان يختنق فى الأغلب، وما حدث عندئذ أنه نظر إلى الأستاذ ربيع وقال بهدوء:

"هـــذا مـــا تعلمتموه فى بلاد البترول، إننى أتعجب يا أخى، المفروض أنك كنت ذاهبا لتعلمهم، وترتفع بهم من حالة التخلف إلى حال أفضل، فإذا بك تعود أكثر تخلفا مما ذهبت."

وتوقف ليلتقط بعض الهدوء، ثم أكمل:

"هـــذا مـــا يقوله بعض المستشرقين والذين يريدون أن يســـلبوا منا كل ما يبدو جميلا فى حياتنا، كل ما هو جميل أو مجـــرد دليل على أننا على قدر من السبق فى شئ ما، حتى لو كان هذا الشىء تاريخنا "

كنت أعرف تلك الحال، رأيتها فى أخى عندما عاد من بلاد البترول وقد أطال لحيته، نظر فى كتاب التاريخ الذى كان بيدى وقال:

"هـــذه مصيبتنا، لا نزال ندرس هذا التاريخ الذى يجب أن ننساه، تاريخ أمة من المشركين،"

نظرت إليه فى دهشة، وقبل أن أحاول الإجابة أضاف:

"'عـــندنا' قـــد ألغـــى هذا التاريخ منذ زمن، وأصبح الطلاب لا يدرسون الآن سوى التاريخ الإسلامى."

قاطعته متسائلا:

arabworldbooks.com

"هل ألغى تدريس التاريخ "عندكم"؟"

أجاب:

"أقــول لك ألغى تدريس مثل هذا المنهج، تاريخ الأمم الــبائدة والمشركة، ويكفى ما ذكره القرآن لنا عنها، هذا هو ما ندرسه، وهذا ما يجب أن يتم هنا أيضا."

قلت بغيظ:

"أنــت تقصد أننا يجب أن ندفن تاريخنا لنرضى هؤلاء السادة الذين اشتروا ابناءنا."

ســاعتها لــم يجد سوى أن ينــزل على وجهى بلطمة لوحتــنى، لــم أفعل سوى أن أسرعت إلى غرفتى ومغلقا بابى جلســت أحــاول أن احــتوى انفعالى، لم أكن أريد سوى كبت الرغبة فى البكاء، الرغبة فى إظهار الضعف، ما عاد هذا يليق بــى، مــر وقــت على كنت أظن البكاء أليق بالنساء، وعندما عرفت أن البكاء رد فعل إنسانى طبيعى يخفف عن النفس كنت قد درجت على هذا، ولم يعد باستطاعتى ترك نفسى لأبكى، كم نضيع من وقت ومجهود فى تربية أنفسنا، وعندما نكتشف أننا طرقــنا الطريق الخطأ يكون الأوان قد فات، ولم تعد بنا قدرة على استعادة ما تركناه.

أمى، بصوتها الخافت، ونظرتها النافذة، وتقطيبتها التى تجعلنا نصمت بلا تنفس حتى تفصح عما تريد.

سمعتها تنادينى، لحظتها، كدت أقوم وأفتح الباب لأذهب إلــيها، لكننى توقفت، فكرت أنه آن الأوان لكى أعلن انسحابى

arabworldbooks.com

مـــن الإذعـــان. هل كان ذلك الوقت المناسب فعلا ودموعى لا تزال خارج سيطرتى؟

لـــم أجبها، وعندما عاد أبى طرق بابى، كنت قد هدأت قلـــيلا وأحسســـت بـــبعض الصفو فى أفكارى. فتحت له، كان غاضبا:

"أهكذا تتحدث إلى أخيك الأكبر؟"

كـــان يمـــلأ البيت بنفسه وزوجته وثلاثة من الأطفال المزعجيـــن، ربما كنت صغيرا، لكنى كنت أكثر فهما، أو هكذا قدرت.

"اذهب واعتذر إليه."

عدت إلى داخل الغرفة، إلى داخل الغربة.

قال أبى:

"أظنك سمعت؟"

قلت:

"لا أعتذر، لم أخطئ لكى أعتذر، أنت دائما إلى جانبه حتى لو كان هو المخطئ."

"أنـــا لا أســـألك مـــن المخطـــئ، فقط أقول لك اعتذر لأخيك!"

خرجـــت إلى الهضبة، أحب الجلوس هناك فى الناحية الغربـــية للهـــرم الأوسط، أنظر إلى الأفق الذى تقطعه خطوط الروابى فوق الهضبة، وأتأمل الغروب الذى لا أرى شمسه، لا

arabworldbooks.com

أرى إلا اللـــون الذى تنشره فى السماء، يمتد، ثم ينسحب أمام انتشار الظلام.

كـــان سفر أخى لعامين فقط قد غيره تماما، وكاد أبى يجن وهو يحاول بكل الطرق إثناءه عن السفر للعام الثالث، كان يريده أن يعمل معه كما فى السابق. لكن خالد، منذ أطال لحيته لـــم يعـــد يرغـــب فى العمل فى مجالات عمل أبى، كان يرى السياحة حرام، والتماثيل التى تباع فى محلاتنا حرام، والصور التى ترسم على أوراق البردى حرام، كلها حرام.

وقف ذات مرة أمام أبى غاضبا يقول له:

"أنت تطعمنا مالا حراما."

كنت أرى عينى أمى القويتين وهما تحطان عليه حين يـــتحدث فـــى مـــثل هذه الأشياء، لكن وجهها كان يبتسم وهى تلاطفه.

أمـــا أبى فقد ظل يتحسس معاملته له، وكأنما هو آنية هشة من الأوانى الثمينة التى يخاف عليها.

وكانت هى التى أثنته عن الرحيل فى العام الثالث.

وعدتـــه بمشـــاركته فى مشروع صغير لتربية الجياد العربـــية، قالت له: "ابدأ بشىء تراه حلالا، وربما فى مستقبل قريب تستطيع أن تغير كل شىء.

وقالت له:

"أختك ستتزوج، هل تترك والدك وحده ثم فى المستقبل ــ لا قدر الله ــ تذهب ثروته لأيدى الغير؟"

arabworldbooks.com

ربمـــا كانت هذه هى النقطة الرئيسية التى جعلت أخى يفكر فى البقاء.

وربمـــا كان ذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الحديث يدور حول كتابة ممتلكات أبى كلها باسم الولدين، خالد وأنا.

كـــان عرس أختى، طافت أربعون عربة تجرها الجياد تحمـــل أثاثهـــا بين طرقات القرية، وفى شارع المنصورية، ثم عادت من شارع زغلول، واتجهت إلى المنـــزل الذى ستقيم به مع زوجها. وبعد أيام قليلة كان العرس، يوم مولد السمان.

الأعراس فى هذا اليوم تملأ البلدة، كل الناس فى فرح.

- ٨ -

نـــزل إلـــى الساحة، المولد على قدم وساق، الأراجيح والبمب واللعب الخشبية فى يد الباعة، والطراطير تلمع بشرائط البلاســـتيك ذات الألوان الفاقعة على رؤوس الأولاد، وبعضهم يدفع العربة الحديدية الصغيرة الثقيلة لتفرقع البمبة التى تحملها عـــند اصـــطدامها بالحاجز الحديدى، الصياح لا يترك فرصة لســـماع أى شـــىء. والـــتلة المظلمـــة هناك تطل على البيوت القصيرة، الواطئة، وفوقها تلك الأهرامات الصغيرة، عندما كان صغيرا كان يلهو هناك تحت التلة مع باقى الصبيان، وينظر من ثغـــرات الأبـــواب الحديدية ذات البارات تغلق فتحات الكهوف

arabworldbooks.com

المظلمـــة، أمـــا تلك التى لم تقفل بالأبواب فكم شهدت من أيام شبابه الأول، حين كان يلقى نعمة هناك.

دخـــل المغـــارة يتســـلل، لم تأت بعد، أظلمت الساحة والمغـــارة فـــى ظـــلام دامس لا يرى إلا بابها، لحظات ورأى شبحها عند الباب يتسلل بحذر، أسرع يمسك بها قبل أن تخفيها الظلمـــة، جعلـــت تهمـــس ب "لا .. لا"، لكـــنه لم يكن ليضيع الفرصة، لقد عمل أياما طوالا ورسم خططا قبل أن يتمكن من استدراجها إليه، أطبق عليها، ولم تعد تتمنع.

- ٩ -

ارتمـــت الطفلـــة الشـــابة فى تشنج على أرض الحمام عارية.

الجن الذى تملكها لا يتكلم.

الـــيوم تخرج، وينظر الفتى من بعيد، ماذا حدث لها؟ لماذا تلف رأسها؟

وينظر الفتى، لكنها لا تنظر فى عينيه أبدا.

ربـــاط الـــرأس للجرح، ورباط الرأس للفتنة، الصلاة الصـــلاة، فإنها لها وجاء، المدرسة الثانوية ليست بعيدة، لكنها تـــبدو أبعـــد من طريق الموت، طريق الموت أقرب، لكنها لا تعرف الطريق بعد.

arabworldbooks.com

شـــكلها اليوم غريب، وجهها فقد البريق، عيناها تكحلتا بزرقة مرضية، خطواتها مترددة، ماذا حدث؟ لا تجيب.

الجســـد يـــنحل يومـــا بعد يوم، تزوغ العينان وتفقدان الثـــبات، مـــاذا حدث؟ ولكنها لا تجيب، والفتى ينظر من بعيد ويدهش.

تحـــت الســـلم، وفـــى المغارة، فى الظلمة الخافية عن الأعين، كان يلقاها، أحيانا يمد يده إليها، يلمسها فترتجف، يقبلها فتتركه وتجرى، لحظات قصيرة لا تكتمل، اليوم تغيب الشمس وهى تهرب، ولا تتكلم بشىء.

الضـــحكة الخافـــتة تحت السلم اختفت، خلف الحجاب اختفت، الوجه فقد البريق.

قالت المعلمة ذات الخبرة فى الحياة:

"هذه الفتاة فعلت شيئا."

قالت الأخرى ذات الظن الحسن بالحياة:

"ربما كانت هناك أشياء فوق ما تطيق."

قال المعلم الشاب الذى لم يتزوج بعد:

"هناك فتى يلاحقها."

قال الآخر قارئ القرآن:

"إن بعض الظن إثم."

قالت الجارات والجيران:

"ماذا حدث لهذه الفتاة؟"

قالت الجارة ذات العيون الخبيرة:

arabworldbooks.com

"كلما خرجت أو دخلت، خرج وراءها أو دخل."

قال الفتى:

"أصابتنى الدهشة، أنا لا أعرف ماذا بها."

"نظرتك التى تأتى إلى على شعاع شمس آفلة لو لمست ثوبى فإن بدنى يهتز."

قالت ذلك وابتعدت.

اللحظة تموت، اللحظات تموت واحدة تلو الأخرى.

انطلقت تدخل وأغلقت الباب، ترتعش.

الأم تنظر، ماذا جرى لابنتى؟ كانت كما الوردة المتفتحة ينتشر ريحها بين حدائق السوسن.

نعمة.

هل هذا اسمى؟ هل أسمع أمى تنادينى؟ منذ رحيل أبى لم أسمع اسمى فى غير ندائها، حتى الرجل الآخر ما كان يناديني. الرجل الآخر .. .. كل حين وآخر هناك رجل آخر، يدخل معها آخر الليل ويغلقان الباب. وأجلس أنا فى فراشى مفتوحة العينين لا أعرف النوم إلا حين أكون قد هدنى التعب وانهارت قواى.

جدتى تنام ملء عينيها، حتى قبل أن تعود أمى من جولتها فى آخر الليل مع رجل آخر، وفى الصباح تسألها:

"كم؟"

arabworldbooks.com

وتـــنظر إلـــيها أمى من خلف جفون مثقلة ومتورمة، أحـــيانا لا تـــرد علـــيها، وأحـــيانا تتشاجران، يعلو صوتاهما، وأخطف حقيبتى لأسرع إلى المدرسة.

نعمة.

أنا أعرف أنى نعمة، حين أرانى فى المرآة أدرك ذلك، وجهى وملامح عينى، وجسدى يتفجر بالحيوية، ولهذا كان علىّ أن أغطـــى ذلك كله، أعين الرجال تأكلنى حتى وأنا ألبس من رأســـى حـــتى أخمـــص قدمى، وحين أتيت عليك رأيتك كيف ترانى، ورأيت نظراتك تلمس كل الجسد المتدثر، وحين لمست يـــدى كنت أريد أناملك ألا تتوقف، لكن يدى منعتك، وصوتى احتبس، هل أدركت ما حدث لى عندئذ.

نعمة، عيناها أذهلته، كان يراها تنمو أمامه، فجأة انتبه إلـــيها حيـــن خرجـــت يوما وقد غيرت ثيابها، حبست رأسها، وأطالت ثوبها، عيناه بحثتا فيها كلها، لم تعد الطفلة التى يعرفها، وها كل من فى الشارع قد رفع عينيه إليها، تبا لهم جميعا، تبا للجســـد المـــتفجر، أنى للثياب أن تلمه؟ كيف يحدث الآن وما عادت نعمة نعمة.

فليختبئ تحت السلم يوما قد تأتى، وفى موعدها، يهمس بالاســـم فتلتفـــت، تبتسم وكأنها كانت تعرف، ثم تسرع الخطى صاعدة السلم الإسمنتى القبيح.

arabworldbooks.com

- ١٥ -

نظرت فى المرآة وهى تخلع ثيابها، لمست بيدها كتفها وصـــدرها وبطنها، أسدلت شعرها لتحس ملمسه على ظهرها. هـــل هـــذا حرام؟ (لمس الإنسان لنفسه ليس حراما، لكنه، فى أحوال معينة، قد يقود إلى الرغبة فى الحرام)، أسرعت ترتدى ثيابها (جسد المرأة حرام) أكملت رداءها (الشعر عورة، والجسد عورة، والصوت عورة) لمت شعرها وغطته.

نعمة.

انتفضـــت وأســـرعت تفتح الباب وتخرج من الغرفة، زوج أمها جالس إلى المائدة وأمها تناديها.

كم هى جميلة ابنتى، يوما ما سأزوجها أفضل الأزواج، لكـــنها يجـــب أن تـــتعلم أولا، أبوهـــا أراد دائمـــا أن يعلمها، وسأعلمها.

احكمى رباط رأسك يا فتاة.

الشـــرفة والمـــارة، وحمد يقف على ناصية الشارع لا يرفع عينيه عن شرفتها.

الآن تخرج، كالنور الآتى من قلب الظلمة تخرج، هل تلمح عينى تطيران إليها؟ هل تلمح صدرى يرتفع وينخفض؟

arabworldbooks.com

من فرجة الوجوه المحيطة برأسها رأت السقف.

أيهن أمى؟

تلـك جارتنا، تلك جارتنا الأخرى، قبطية هى، قبطية، لماذا القبط دائما.

"لـيس مسـيحيو مصر هم فقط القبط، المسلمون أيضا قبط، كلمة قبط تعنى مصريين، كلمة قبط مشتقة من اسم مصر فى القدم، وهى تعنى جميع المصريين"

قـال ذلك مدرس التاريخ، لكن المصريين يعرفون أن القبط منهم هم المسيحيون، هكذا درجنا.

الأسـتاذ عـبد السـتار كـان يعلق خريطة مصر فى العصـور الوسـطى، كـان يومها فى غاية النشاط، كان يعلق الخـريطة أمامـنا ويشرح لنا خط سير المماليك للوصول إلى القدس، قال لنا:

"كان على صلاح الدين أن يحرر بيت المقدس ..."

ثم مات، ولما يدخل صلاح الدين بيت المقدس.

arabworldbooks.com

بيت الموتى مفتّح الأبواب.

أدور مـــن الطريق الآخر، لا أرغب أن أشاهد شواهد القـــبور وأنا فى طريقى إلى المدرسة، عندما كنا صغارا نحفر فـــى رمـــال الفناء فى مدرستنا، كنا أحيانا نجد عظاما، ومرة وجـــدت بنفسى (سنة)، كانت كبيرة، صرخ الأطفال، وجريت خلفهم أخيفهم بها.

كـــان محسن طفلا من الأطفال، لكنهم وجدوه مع طفلة أخرى فى الحمام، يلعبان فى أعضائهما.

قالت الدادة ذلك، والناظرة جاءت إلى الفصل، وطلبت من جميع الأطفال أن يقاطعوهما، وألا يتحدث أحد معهما.

بعـــد ذلك كان محسن دائما يبكى، لا أزال أذكره، وهو يبكى وأنا أشفق عليه ولا أطيع الناظرة وأتجه إليه بالحديث.

كنـــت أنظـــر إليه نظرة تعاطف، وكأنى أفهم، وكأنى أفهم.

جلســـت المعلمة، وطلبت إلينا أن نقرأ، جعل كل واحد يقـــرأ فى دوره، وعندما حان عليه الدور، وقف خجلا، طلبت المعلمـــة منه أن يقرأ، سكت متوترا، زعقت فيه أن يقرأ، تردد قلـــيلا، ثـــم اندفـــع يقرأ، اندفع يقرأ متأتئا فى البداية، ثم ازداد انفعالـــه، أخذت قراءته تسرع مع الانفعال الشديد، وأخذ انفعاله يزداد حتى انفجر بالبكاء.

arabworldbooks.com

ولم أحاول أبدا أن أسأله عن التفاصيل، وكأنى أفهم.

أقف إلى جواره فى الفسحة، أحادثه بحميمية، أحاول أن أنتزعه من تلك الحالة الغريبة، حتى صديقاتى البنات كن ينظرن لى باستغراب، إحداهن اقتربت وربما فهمت هى الأخرى، وحاولت معى انتزاعه من تلك الحالة الغريبة.

كان قد تغير تماما، بعد أن كان شخصا مرحا، أصبح خجولا خجلا مرعبا، لا يتكلم ويدارى وجهه إذا وجه إليه الكلام أحد.

أما الفتاة التى كانت معه فى الحمام، فالغريب أنها لم تتأثر كثيرا مثله، كانت كما كانت دائما، شقية وتلعب وتضحك، بعد أيام قليلة كانت قد نسيت كل شىء. وتناسى الأولاد أيضا أو نسوا، لكنهم كانوا يتذكرون مع محسن، لماذا؟ لم أكن أدرى.

قال لى زميلى الجالس بجوارى:

"إنها تفعل ذلك مع أولاد كثيرين، هل تظنين محسن هو الوحيد؟"

لم أصدق، واليوم عندما أستعيد ذلك أسأل نفسى، هل هناك نوع من العهر بين الأطفال أيضا، كنت طفلة ذات يوم كما كنا جميعا، لكن عالم الطفولة به من الأسرار ما لم أكتشفه كاملا.

بعد قليل، تحول الأمر إلى قضية بين الأولاد والبنات، هناك من يحاول الحديث إلى محسن، وهناك من يبتعد عنه ويتجنبه، وهناك من يحاول تجريحه بشكل شديد القسوة.

arabworldbooks.com

وأنا وصديقتى تلك حاولنا أن نسرى عنه أغلب الوقت.

كنا نجلس بالقرب منه فى الفصل، كنا نسلفه أدواتنا إذا كـــان بحاجة إلى أداة ما، بينما كان الباقون يتجاهلون الأمر فى الغالب.

لكن الحكاية لم تستمر طويلا. فقد اختفى محسن فجأة.

ذات صباح لم يكن موجودا فى طابور الصباح، وقالت لنا المعلمة بعد أن دخلنا الفصل:

"لقد مات زميلكم محسن بالأمس."

ثم قالت:

"اقرأوا له الفاتحة."

زمـــيلى الجالس بجانبى كان مسيحيا، لم يقرأ الفاتحة، ولـــم يرســـم علامة الصليب، فقط جلس متصلبا فى مكانه، فى عينـــيه دمعـــة لا تنحدر. وهربت من وجهه ابتسامة كانت لا تفارقه.

ولم أقرأ الفاتحة، ولم أشعر بشىء، لم أكن حزينة، فقط كنـــت أرغـــب فى ان أكون مخالفة، بعناد شديد، لكل ما تقوله المعلمـــة والـــناظرة، كنـــت أنظر دائما إلى حيث كان يجلس محسن، أتوقع أن أجده يوما يجلس فى مكانه، باكيا.

وكرهت الناظرة.

ولم أفهم، أبدا لم أفهم.

arabworldbooks.com

- ١٣ -

الخـــريطة أمامنا معلقة، وصلاح الدين فى طريقه إلى بيت المقدس، ووقع الأستاذ عبد الستار على الأرض صارخا.

البـــنات يصرخن، والصرخات تأتى إلىّ من بعيد وأنا أحملق، لولا ذلك الغيام لرأيت كل شىء.

لكـــن المكـــان ازدحم، معلمين ومعلمات، عامل المبنى وبعـــض العمال الآخرين، أصوات الأقدام تزيد وتزدحم وتدق وتـــدق، وتصطدم بالأرض زاحفة، تكثر الخطوات وتقرقع فى رأســـى، تلـــك الخطـــوات التى تقترب من بين كل الخطوات المـــزدحمة أعـــرفها، تقـــترب منى، جسدى يرتج والدم يزيد برأسى، ليس الآن، ليس الآن.

لكـــنها تزداد وتقترب، خطوات الآتى من عالم الغيب تدق برأسى، يلمسنى فأصرخ، الرعب يملؤنى، النار ستحرقنى، لا تلمسنى، لا.

صـــوت القرآن الآتى برتابة أعرفها، لكنه يزداد عنفا عندما يسمعه، ذلك الآتى من عالم الغيب يزداد بى عنفا، يهزنى بشدة، يضربنى، يجلدنى، يزداد عنفا.

مـــاذا جـــرى لك يا ابنتى، كنت كما الوردة المتفتحة، أريجها ملأ الحديقة ونقلته الرياح إلى الأطراف البعيدة.

arabworldbooks.com

كان باب الحمام مغلقا، الملائكة لا تدخل علينا ولا ترى عوراتنا، لكن الشياطين، ما الذى يمنعها؟ أى شيطان هذا وماذا يريد بك؟

شعرك كان متناثرا على الأرض مبللا، جسدك يرتج، تصارعين شبحا خفيا، شيطان من شياطين الجن، ما شكله؟ هل يشـــبه الآدميـــن؟ هل ترينه بوضوح، هل فعل بك شيئا؟ كنت عارية، عارية، فهل..؟

جارتنا قالت:

"اذهبوا بها إلى الكنيسة."

وقالت أخرى:

"بل اذهبوا بها إلى الشيخ القادر على إخراج الجن."

وقالت ثالثة:

"بل اذهبوا بها إلى الخلوة."

نظرت أمى إلى الجارة، وتلك تمتمت ببضع كلمات.

وأنا أغمضت عينى، وضاع منى الانتباه.

arabworldbooks.com

الفصل الرابع

- ١٤ -

أبـى لـم ينصـفنى أبـدا، كان خالد هو الأخ الأكبر، والذراع الأيمن، ماذا أفعل سوى الرحيل؟

حـتى أبـى كان يبعدنى أحيانا عن البيت، يرسلنى فى رحـلات قصـيرة بين سقارة وميت رهينة ودهشور وغيرها. وكـان ذلك دائما بصحبة بعض الرجال من العاملين معه، كان يقـول لـى هذا عمل، فى هذه الرحلات كنت أرى الكثير من الأماكن الأثرية وقطع الآثار التى تتداولها أيدى الرجال. بالذات كان أحدهم، والذى كان صديقا لوالدى، وهو الذى أرافقه وأكون فـى صـحبته، كان يعرض علىّ بعض القطع الصغيرة وهو يشـرح لـى مـا بها من عيوب أو مزايا. فى الواقع كان عم فرحات من ميت رهينة يعمل بالآثار منذ نعومة أظفاره، ورغم أنـه لم يتلق تعليما أكاديميا إلا أنه كان يفهم الكثير، ينظر إلى القطعة بعينين ثاقبتين ويقلبها لحظات، ثم يقرر أخذها أو تركها. ويقـول لـى: إنها فاسدة. لم أكن أعرف فى الواقع ماذا يقصد بفاسـدة هـذه. كانـت مثل هذه الرحلات تحدث منذ كنت فى الإعداديـة، وربمـا كـان لها تأثير فى اختيارى الدراسة بقسم التاريخ فى الجامعة.

arabworldbooks.com

نعم، كان عم فرحات يفهم كثيرا فى الآثار، وكان أحد الرجال الذين علمونى أشياء هامة منذ نعومة أظفارى. لكن الأستاذ عبد الستار، لا أستطيع أن أنساه، كانت أول معرفتى به عندما كان يسكن فى شقة فى العمارة الجديدة التى بنيت بجوار بيتنا، كان عمى قد بنى هذه العمارة فى أواسط الستينيات، وسكن فيها الأستاذ عبد الستار، وكان يعمل مدرسا فى المدرسة الإعدادية الواقعة على المنصورية.

وعندما كان هذا اليوم الفريد الذى كان بداية معرفتى بالأستاذ عبد الستار، كان ذلك على الأغلب فى عام ٦٥ أو ٦٦. أذكر ذلك جيدا لأننى كنت أذهب إلى المدرسة الإعدادية، وكنت أحمل حقيبتى المصنوعة من القماش، والتى صنعتها لى أم عوض، وكانت تسكن فى نهاية الشارع، وتأتى لأمى لتصنع لها ما تشاء من ثياب، لها ولنا نحن الأولاد.

وأنا أذكر التفاصيل الكاملة لما حدث، كانت هناك مباراة منتظرة بين فريقى الأهلى والزمالك، ولم يكن لدى أىّ منا تليفزيون. كان التليفزيون يعتبر جهازا مرتفع الثمن، ولم يكن موجودا فى كل بيت كما هو الحال الآن. وكان الأستاذ عبد الستار يسكن وحده فى شقة، ولديه جهاز تليفزيون.

اجتمع بعض الرجال فى بيتنا، كما هو دأبهم فى ليالٍ كثيرة، كان والدى يسهر فى غرفة الضيوف مع ضيوفه من الرجال، أو فى الأمسيات الحارة يجلسون فى الحديقة. كان لبيتنا حديقة، واسعة بعض الشىء، تمتلئ بأشجار عالية وبعض

arabworldbooks.com

النخيل، فقد كان البيت قديما، ربما بناه جدى فى شبابه، أو فى كهولته على الأغلب. كانت هنا شجرة صفصاف كبيرة اعتاد والدى الجلوس تحتها، ولذلك انحنت الشجرة ومدت فروعها بشكل أفقى ومالت بجذعها لتخيم على الجالسين تحتها، قال لى والدى يوما أن هذا دأب الأشجار التى اعتاد الناس الجلوس تحتها. وأمام الشجرة كانت بقايا الحريق فى حفرة دائمة لا تندثر، حيث يوقد الرجال بعض الفروع الجافة وقوالح الذرة، يستخدمون جمراتها الصغيرة المتوهجة فى رص الجوزة، وأحيانا يضعون عليها براد شاى قديم اسوَدَّ لونه من كثرة الاستخدام، ويطلب منى والدى غسل الأكواب الصغيرة التى اعتادوا الشرب فيها مرة بعد أخرى، تدور عليهم مرة ومرات، وتنتهى بوضع الليمون على الشاى فى الدور الأخير، كنت أحب هذا دائما، الشاى بالليمون، كنت أحسّ أنه أحلى ما فى هذه الجلسة، فأنتظر صابرا، ساكنا، إلى جوار الرجال، لا أشرب الشاى عندما يقدم لى، أو أشربه بضيق وكانه واجب، وعادة لا أشربه إلا حين يأمرنى والدى بشربه، حتى يأتى دور الشاى بالليمون، فأتناوله بشغف وسعادة، ثم أذهب إلى اللعب مع أخوتى وأبناء عمومتى.

فى تلك الليلة كانوا يتحدثون عن المباراة المرتقبة بين الأهلى والزمالك، وأظن أنها كانت فى قمة الدورى أو الكأس، شىء من هذا القبيل، كانوا يريدون أن يذهبوا إلى مقهى فى الجيزة للفرجة على المباراة، لكن أحدهم خرج باقتراح:

arabworldbooks.com

"لماذا لا نتفرج على الماتش عند الأستاذ عبد الستار؟"

وقال آخر مؤيدا:

"والله فكرة جيدة، ولم لا، إنه يعيش وحده، ولن نضايق أحدا بوجودنا عنده."

وتساءل أحدهم حينئذ:

"لماذا يعيش وحده؟ أليس له أهل؟"

وأجاب والدى بضيق:

"ومالك وهذا؟ هو حر يعيش مع أهله أو يعيش وحده، أليس رجلا؟"

وأجاب الرجل بخجل:

"كنت أقصد أنه وحيد، ربما لو تزوج مثلا .."

قال أبى بحزم، مغلقا هذا الباب:

"دع الخلق الخالق."

كـــان إغـــلاق الباب يعنى أن يدور الحديث فى اتجاه آخر، وقال بعضهم:

"لكننا لا نعرفه جيدا، كيف لنا أن نطلب منه ذلك؟"

قال أحد الجالسين على الأرض:

"ولا يهمكم، سأطلب منه ذلك بنفسى، لن يمانع، المسألة لا تتعدى أن يستقبلنا لزمن الماتش فقط."

كـــان هذا عم محمود العربجى، إننى أتذكر عم محمود وهـــو يقولها، كنت جالسا إلى جوار أبى فى ركن من المضيفة فى بيتنا، أذكر ذلك لأننا كنا فى الشتاء، وكان أبى قد طلب منى

arabworldbooks.com

إعداد الراكية وأوقد النار بنفسه، وجلس على المقعد الكبير فى صـــدر الغـــرفة، بينما جلس الرجال حوله بعضهم على مقاعد قريـــبة، والبعض الآخر على الأرض، أين كان أخى الأكبر فى ذلك اليوم؟ لا أذكر، ربما كان يقوم ببعض الأعمال التى طلبها منـــه والدى، لقد كان يطلب منه أعمالا تضعه دائما فى مكانة الاهتمام بأعماله، وتقربه من فهمها، لماذا لم يطلب منى أنا شيئا مـــثل ذلـــك فـــى ذلك الوقت، ربما كان حريصا على أن أكمل تعلـــيمى، لكى أقف على قدمى كما كان يقول دائما، ولكن خالد قد أكمل تعليمه أيضا، فكيف .. ما علينا من ذلك الآن، المهم أن محمود العربجى استطاع أن يأخذ وعدا من الأستاذ عبد الستار بـــان نتفرج على التليفزيون فى شقته، ولم يكن هذا غريبا، فى الحقيقة لم يكن الأستاذ عبد الستار غريبا على الإطلاق، كل ما فى الأمر انهم هم الذين كانوا يستغربونه.

كنـــت أفكر فى هذا الأمر كثيرا، لماذا يستغرب الناس رجـــلا يعـــيش وحده؟ أو امرأة تعيش وحدها، هذا بالطبع أمرٌ أعجب، وفى ذلك الوقت لم يكن واردا بالمرة فى النـــزلة، بعد ذلك بسنوات قليلة عرفت تلك الراقصة التى تسكن وحدها، ليس فـــى الـــنـــزلة بالطبع، ولكن على قرب منها. عرفها الجميع، والحقـــيقة أنها لم تكن وحدها أبدا، كانت معها والدتها العجوز وابـــنة وحيدة، وشهد بيتها كثيرا من الصخب والسهر، عرفها الجمـــيع، ولم يعترض على وجودها أحد، كانت تستقبل رجالا كثيريـــن، وكانوا يقولون أن زوجها، والد الطفلة، طلقها، وقيل

arabworldbooks.com

فـــى تهـــامس أيضـــا، أن هذه الطفلة لم يكن لها أب، كنت فى مراهقتى أعرف بيتها، ودخلته أيضا. كنت مغرما بابنتها، نعمة. كنـــت أنـــا فـــى المرحلة الثانوية، وكانت نعمة فى أول صف بالإعدادية، لكن جسدها الفائر كان يوحى بأنها أكبر سنا، تحابينا وتلاقيـــنا كثـــيرا. أنتظرها فى خروجها من مدرستها، وأسير وراءهـــا، وأســـرع أسبقها وأختفى تحت السلم. وعندما تدخل أجذبها، نتبادل قبلات قليلة فى ظلام المدخل، ثم تدفعنى وتسرع إلى شقتهم.

كانت أمها جميلة يتهافت عليها الكثيرين، لكن عندما قل دخـــول الـــرجال إلى بيتها، وقل إنفاقها، بدأ الجميع يتهامسون بمـــاذا تفعل امراة وحيدة ليس معها سوى أمها وفتاة صغيرة، لكن تلك حكاية أخرى.

رغـــم ذلك، فما زالت هناك القاعدة التى كانت سائدة، وهـــو الاســـتغراب من وحدة إنسان ما، لكن الحياة لا تترك لنا خـــيارا فـــى أن يعجبـــنا هـــذا أو لا يعجبـــنا ذاك، ورغم كل الاســـتغراب، فهـــا نحن اليوم يكثر بيننا من يعيشون وحدهم، يكـــثرون إلـــى درجة أن الناس قل استغرابهم، وفى قريب جدا سوف يزداد هؤلاء الغرباء فى الحياة حتى يصبحون هم القاعدة والأغلبية، سوف نصبح جميعا غرباء.

أذكر هذا اليوم جيدا، كان الأستاذ عبد الستار جالسا فى الصالة، وقد أعد تُرموس كبيرا مليئا بالشاى. وفدوا واحدا بعد الآخـــر، كانـــت هذه هى المرة الأولى التى يدخلون فيها بيته،

arabworldbooks.com

وكـــان احـــترامهم الـــزائد لـــه يجعلهم فى حالة من الإحساس بالحـــرج، لكنه ماتش الأهلى والزمالك، ولم تكن هناك فرصة أخـــرى لمشاهدة الماتش، فالمشوار إلى الجيزة بعيد، وتليفزيون الأستاذ عبد الستار أقرب.

أعـــدوا مقـــاعدهم فى هدوء، وجلسوا جنبا إلى جنب، بعضـــهم جلس على المقاعد، وبعضهم، الأطفال على الأغلب، جلســـوا على الأرض متربعين، حتى الأطفال الذين لا يكفون عن الحركة فى العادة كانوا فى حالة غريبة من الهدوء المريب.

أحـــب الأســـتاذ عـــبد الستار أن يكسر جمود اللحظة، فتوجه إلى أبى متسائلا:

"وكيف حال الأولاد يا حاج نبيل؟"

رد أبى بابتسامة واسعة وبألفة بالغة:

"والله انـــت شايف الأولاد وشقاوتهم، الآن يجلسون فى هدوء وكأنهم فى غاية البراءة."

تضـــاحك الـــرجال، وانفك بعض الارتباك، وبدأ تبادل بعض الكلام العام، كالعادة عن الطقس، ثم عن الكورة، إلخ.

بدأ الماتش، واعتدل الجميع صامتين متوترين، وصب الأستاذ عبد الستار الشاى فى الأكواب الموضوعة فى الصينية المجـــاورة له، والـــتى كان قد أعدها أيضا قبل مجيئهم، جعلوا يـــناولون الأكواب كل للآخر حتى أصبح فى يد كل منهم كوبا، أذكـــر أنـــه كان هناك خمسة من مشجعى الزمالك، وسبعة من مشجعى الأهلى، وثلاثة أطفال.

arabworldbooks.com

وكنت أتعجب، كيف للأستاذ عبد الستار أن يحتفظ فى بيته بكل هذه الأكواب، بينما يعيش وحده ومن النادر أن يستقبل ضيوفا بهذا العدد، وخاصة أنها كانت أكوابا كبيرة الحجم، وليست صغيرة كأكواب الشاى المعتادة فى بيوتنا. ربما اشتراها خصيصا لهذه المناسبة.

ساد الصمت الجلسة، وجعلت أنظر خلسة إلى كل منهم، حالة غريبة من الصمت وعدم التعليق، لم يكن هناك من يتكلم رغم توترهم الشديد، وأخيرا حدثت الحادثة، ودخلت الكرة فى شبكة الأهلى.

فى البداية لم يتحرك أحد، ولم يعقب أحد، وتبادلوا نظرات حرجة. لحظة مرت، ثم تصرف أحد الزملكاوية ليقهر حالة الجمود هذه، فقام من مجلسه بوقار شديد، واتجه إلى زملكاوى آخر مادا يده للمصافحة قائلا:

"مبروك"

قال ذلك فى هدوء شديد ووقار كامل، وفى صوت خافت، وكأنه يخشى أن يسمعه الأهلاوية.

عاد إلى مجلسه، لكن باقى الزملكاوية فعلوا نفس الشى، وكأنهم وجدوا حلا للإفراج عن بعض الطاقة الكامنة التى أثارها هذا "الجول"، قاموا بهدوء، وتبادلوا المصافحة والتهانى بنفس الهدوء، يقول كل منهم للآخر بصوت أقرب إلى الهمس:

"مبروك .. مبروك .."

ثم عادوا إلى أماكنهم.

arabworldbooks.com

بعد قليل دخل "جون" فى مرمى الزمالك، فقام الأهلاوية بـنفس الهدوء يفعلون نفس الشئ، يتصافحون ويتبادلون كلمة: مبروك .. مبروك ..

تكررت الحكاية مع كل هدف آخر حتى انتهى الماتش.

ثـم خـرجوا شاكرين للأستاذ عبد الستار سماحه لهم بالفرجة على الماتش فى بيته. وكان يردد:

"أهلا بكم فى كل وقت."

كـيف أنسى هذا؟ إننى أتذكره اليوم رغم أننى كنت لا أزال صـبيا، كلما سمعت صراخا فى الطرقات بعد أن يسجل هدف ما فى إحدى المباريات الهامة، أو غير الهامة فى الحقيقة.

فـى الـيوم الـتالى لهـذا "الماتش"، خرج والدى فى الصباح، وعاد فى وسط اليوم يتبعه أحد عماله يحمل تليفزيونا. كـان ذلـك حدثا فى بيتنا، وفيما قبل كان والدى يرفض شراء التليفزيون على أنه جهاز عجيب، ولا أهمية له، وبالطبع لم يكن واردا بعد أنه مفسدة للأخلاق أو مضيعة للوقت. ولكن بعد يوم المـاتش فـى منـزل الأستاذ عبد الستار، وجد أبى أنه جهاز ضرورى للغاية. كان يوم فرحة شديدة فى بيتنا، خاصة بالنسبة لـنا نحـن الأولاد والبنات. جلست أختى وأنا فى انتظار بداية الإرسال بفارغ الصبر، حتى خالد الذى كان دائما مشغولا، ترك كـل شىء وجلس ينتظر معنا، وكان الإرسال يبدأ فى الخامسة مسـاء على ما أذكر، وأصبح الجهاز الجديد هو اهتمامنا الأول لفـترة، نجلـس حولـه فى المساء، ونتناول العشاء أمامه. أمّا والدتى، فهى الوحيدة التى كانت تنظر إليه بضيق، وتقول:

arabworldbooks.com

"ماذا دهاكم؟ كلما جلستم أمامه لا تسمعون ندائى لكم."

بعد ذلك، بعد سنوات فى الحقيقة من ذلك اليوم، اتخذت لقاءاتى بالأستاذ عبد الستار سبيلين كان لهما تأثير كبير على حياتى. أولهما عندما كان يدرِّس لنا التاريخ فى المدرسة الثانوية، أما الثانى فكان سبيلا مختلفا، بعده أصبح الأستاذ عبد الستار صديقا حقيقيًا بالنسبة لى، وقد بدأت المسألة عندما كنت أذهب للقراءة فى دار الكتب.

فى سنى دراستى، كان أبى يجن عندما يرانى أقرأ شيئا خارج كتب الدراسة.

لكن أمى لم تكن تهتم كثيرا، فى الحقيقة أنها لم تكن تعرف القراءة والكتابة أصلا. فإذا غضب أبى علىّ، كانت تقول له:

"لم لا تتركه يقرأ ما يريد؟ كلها قراءة فى النهاية!"

وعندما كنت فى المرحلة الثانوية، كنت أخرج فى يوم الجمعة مع بعض أصدقائى، ومنهم أمير الذى كان يسكن فى النزلة مع أسرته. كانوا قد جاءوا من الصف منذ سنوات قليلة، وكان والده يعمل مدرسا للعلوم. كان أمير يبدو فتى ساخرا وإن كان بشكل سطحى غالبا. نعم، لم تكن سخريته من النوع العميق الذى يترك فيك أثرا، أذكر ذلك لأن هذا الفتى استمرت علاقته بنا طويلا، وإن كانت قد مرت بمراحل مختلفة. الشىء الذى استغربته دائما هو الخطأ الذى كان يقع فيه عندما يسمِّى الألوان. كنت أسأل نفسى ألم يعلمه أهله أسماء الألوان فى طفولته حتى أنه يخلط بينها؟

arabworldbooks.com

كنا أحيانا نسير فى وسط البلد ونزور أماكن كالحسين ومصـــر القديمة والقلعة، وفى أثناء سيرنا فى شوارع القاهرة القديمـــة تعرفـــت على دار الكتب، وهناك وجدت مجالا أوسع كثـــيرا للقراءة واستعارة الكتب، وهناك، وفجأة، التقيت الأستاذ عبد الستار.

كـــان يعرفـــنى بالطبع، ليس فقط لأننا كنا جيرانا على الأقـــل لســـنوات طويلة، وإن لم يكن بيننا حديث كثير، ولكننى أيضـــا كنـــت تلميذا متفوقا فى حصة التاريخ، وهو كان أستاذا مختلفا، شديد التركيز، قوى الذاكرة، فى الحقيقة لقد أدهشنى فى أول مرة دخل فيها فصلنا فى المدرسة الثانوية، والتى كانت فى الجيزة، قال إننا يجب أن نتعارف فى البداية، وطلب من كل منا أن يذكـــر اســـمه. هـــذا يوم آخر لا أنساه، لقد كان يطلب من الطالـــب أن يذكـــر اسمه ويقف قليلا يتأمله بتركيز شديد وهو يكرر الاسم، ثم يسمح له بالجلوس ويتجه إلى الطالب المجاور له، وهكذا. كان كثير من المعلمين يفعل ذلك، لكنه كان الوحيد الذى تذكر فورا، كل الأسماء، لكل الطلبة. فى اليوم التالى كان ينادى كل طالب باسمه الكامل، كان بالفصل ثلاثين طالبا، وكان الأستاذ عبد الستار يقوم بالتدريس لأكثر من ثلاثة فصول، فى يوم واحد، كان يتذكر أسماء أكثر من مائة طالب، حتى خارج الفصـــول، فـــى الحقـــيقة أدهشنى، كان أكثر المعلمين ينسون أســـماء الطلـــبة ويطلبون تكرارها لأكثر من مرة فى الحصة الواحدة.

arabworldbooks.com

عندما لقيني في دار الكتب سلم عليّ بود حقيقي، وسألني عن دراستي، وعندما قلت له أنني أفضل التاريخ وأنوي أن ألتحق بقسم التاريخ في الجامعة، فرح حقا، وقال:

"إنني لا أهتم أن تكون تفعل ذلك لأنك تريد التمثل بي، سوف أفرح أكثر لو كان اهتمامك بهذا القسم من الدراسة حقيقيا."

تذكرت أخي، وتذكرت ما وضع الأستاذ عبد الستار في نفسي من حب للتاريخ، وفي الحقيقة، لم أكن أعرف لماذا أحب التاريخ، ولكن كلماته هذه جعلتني أفكر. المهم أنه، في ذلك اليوم، فتح لي بابا لم أكن طرقته من قبل، باب المخطوطات، لقد كان يجري بحثا لنيل الدكتوراة، وطلب مني أن أساعده، بالبحث معه عن معلومات معينة، كنا نطلب المخطوط ونقوم بقراءته واستخلاص المعلومات منه، ثم نقلها حرفيا. أحدنا يملي الآخر. لم تكن خدمة التصوير موجودة في ذلك الوقت. وبدأت علاقتنا تأخذ شكلا آخر، عندما كنا نتعب من العمل كان يقول لي:

"آن أن نرفه عن أنفسنا."

نخرج من دار الكتب في باب الخلق، ونتجه إلى مصر الفاطمية، إلى الخيامية نسير في شوارعها حتى نصل إلى مسجدي السلطان حسن والرفاعي، كان يقول إنهما أجمل ثنائي معماري على وجه الأرض. نزورهما ونتأمل في المبنيين العتيق منهما والقديم، البسيط منهما والفخم، نتأمل ونقارن،

arabworldbooks.com

ونناقش ونقضى باقى اليوم فى استنشاق الهواء بينهما، وقد نمد الخطـو إلى القلعة ومسجد محمد على وقصره. وقد نخرج من دار الكتـب إلـى باب النصر، ثم إلى الفحامين وحتى الأزهر، علمـنى طـريق الكتب القديمة هناك، اشتريت ألف ليلة وليلة، والزير سالم وسيرة عنترة بن شداد وغيرها. وقد نخرج من دار الكتب، نسير فى شارع حسن الأكبر ثم فى شارع التحرير حتى نصل إلى ميدان التحرير، وندخل المتحف.

لم أكن رأيت المتحف قبلا، فى الحقيقة رأيته وطفت به فى أكثر من رحلة مدرسية، لكن هذه المرة بدا لى أننى لم أره قـبلا. هـذه المرة كانت مختلفة، لم أكن أعرف كيف أستمتع بالمتحف، وفى أول مرة ذهبت معه كان استمتاعى كبيرا.

ورأى ذلك فقال لى:

"هـيا نخصـص يوما للمتحف، أنت بحاجة لأن ترى أكثر."

وبالفعل، خصصنا يوما كل أسبوع للمتحف، طفنا بكل قطعـة فـيه، كان درسا رائعا لا أنساه. وفعل ذلك بكل حب، وبمنتهى البساطة.

فى ذلك الوقت كان التنافس على أشده بينى وبين أمير، الـذى كـان يدرس اللغة الإنجليزية فى كلية الآداب. وأصابته الغـيرة عندما عرف بصداقتى مع الأستاذ عبد الستار، وأحببت أن أخفـف مـن غـيرته هذه فأخذته معى فى إحدى زياراتنا للمـتحف، وفى الواقع أنه أصبح موجودا فى كثير من جولاتنا

arabworldbooks.com

بعد ذلك. ولم يضايق ذلك الأستاذ عبد الستار، فقد كان يعطى دائما من علمه وتذوقه بكرم وبمنتهى الحب والبساطة كما ذكرت. وفى هذه الزيارات، ونحن نتأمل التفاصيل الدقيقة للأشياء، وبالتحديد أمام كرسى توت عنخ آمون الشهير بألوانه الفاتنة، اكتشفت ما كان يحيرنى فى أمير. كان أمير لا يرى الألوان. لم يكن يرى إلا الأسود والأبيض وما بينهما من درجات الرماديات، كذبت نفسى مرات ومرات، ولم يكن هو يفصح أبدا. لكننى فى ذلك اليوم تأكدت تماما من ذلك، وبعد ذلك تساءلت أمام الأستاذ عبد الستار إن كان لاحظ هذه المسألة، فأكد لى أن الأمر واضح للغاية، وليس بحاجة إلى سؤال.

وهناك شىء آخر فى حياتى فعله الأستاذ عبد الستار، فى يوم أصابنا التعب ونحن نلف فى المتحف، وقال لى فجأة:

"ما رأيك أن نجلس قليلا فى المقهى؟"

كان الأستاذ عبد الستار شخصا بالغ الجدية فى أشياء كثيرة، لم أتصور أنه من جلساء المقاهى، وعندما نظرت باستغراب، قال:

"سأريك مقهى، لن تمله أبدا."

وكان أن ذهبنا إلى ريش.

وفى هذا المقهى تعرفت إلى الكثيرين، بعضهم أصبح من أقرب الأصدقاء، وبعضهم كان بينى وبينه الكثير، وأكثرهم صداما كان أقربهم صداقة، دائما أحببت القادرين على الصدام.

arabworldbooks.com

واصلت أنا، مع المتحف، ومع دار الكتب، ومع ريش، ومع أمير، لكن الأستاذ عبد الستار لم يواصل، ذات يوم، مات فجأة، وقع من طوله وهو واقف يؤدى عمله بتدريس التاريخ لفصل من فصول البنات فى المدرسة التى انتقل إليها قبل عامين فقط. مات ودفن قبل أن أعرف، فقد كنت فى ذلك الوقت فى الأقصر.

وأما أمى وأخى، فقد كبر مشروع الجياد الذى بدآه وأنا لا أزال فى المدرسة الثانوية، وتحول بعد سنوات إلى مشروع لإمداد استوديو الهرم بالجياد التى يحتاجونها فى الأفلام. والتى كانت تصور فى الصحراء القريبة، ثم تطور إلى مشروع لإمداد هذه الأفلام بمختلف حاجاتها من الإكسسوارات كما يسمونها، الأثاث وغيره من الأشياء. وفى هذا الوقت، كان أخى قد عاد إلى حلق لحيته، وتربية شارب صغير. واهتم بعمله، وأنجب مزيدا من الأبناء.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل الخامس

- ١٥ -

كان أهم شيء يجمع الحاج نبيل أبو طالب بأخوته هو الأرض الـتى تركها والدهم، أو هذا ما كان يبدو، عزبة كبيرة تزيد على مائتى فدان من حدائق الفاكهة فى إحدى القرى التى لا تـبعد أكثر من عشرين كيلومترا إلى الجنوب. وفى الحقيقة كانت الأعمال التى يهيمن عليها، والتى تخص العائلة بالكامل، كثـيرة، وكان لا يأبه بغير بقاء كل شيء مجتمعا، كبقاء العائلة مجـتمعة، يسـكنون فـى بيت واحد كبير، والدخل يقسم على احتياجات كل فرد، وفى النهاية يوضع الباقى فى البنوك، حيث يتجمع كل عدة سنوات ما يكفى لبداية مشروع جديد أو توسيع مشروع قديم.

ربمـا كانت أهم المشروعات التى تمارسها العائلة هو تجارة الأنتيكات التى كانت رائجة فى زمن قديم، قبل أن تكون ممنوعة اليوم، وكان هناك قدر من السماح فى فترة بيع بعض القطع المتكررة التى يوجد الكثير منها، ربما هذا ما مكن حمد من الحصول يوما من أبيه على ذلك القناع.

المشكلة التى واجهت الحاج نبيل كانت هى ابنته، والتى تزوجت من خارج العائلة. لم تكن المشكلة فقط أن دخولها فى

arabworldbooks.com

الميراث سيجعل جزءا من المال يخرج من العائلة، المشكلة أكبر من ذلك. فحين ترث مثلنا، ربما يجدون زوجها متدخلا فى كل صغيرة وكبيرة، وسوف يفرض آراءه وأسلوبه على ما درجنا عليه فى إدارة مسائلنا، وربما يزداد الأمر سوءا إذا أدت المشاكل لأن يجعلها تبيع نصيبها، وقد يحدث هذا البيع لغريب. سوف ينفرط عقد العائلة.

ثم إنها، كامرأة، مسئولة من زوجها، ماذا تفعل بميراث الرجال أحوج إليه؟ هل لتزيد من ثراء زوجها؟ أم لترفع مسئوليتها عن كاهله؟ ألا يكفى أنها تعلمت وحصلت على شهادة جامعية، الأمر النادر الحدوث فى العائلة، بل فى القرية كلها، بالنسبة للنساء؟ ومن الممكن أن تعمل أيضا، وفى هذه الحالة ستصبح هى نفسها، دون ميراث أو غيره مصدر دخل لزوجها وعائلته، مصدر دخل آخر يثقل ميزانهم. الغريب أن الفتيات اللائى أكملن تعليمهن فى العائلة، وهن على سبيل الحصر أخت حمد وابنة عمه، تزوجتا من خارج العائلة.

كان الحاج نبيل فى حالة من الاطمئنان إلى حد كبير، لقد قرر ببساطة أن يكتب نصيبه فى أملاك العائلة باسم الولدين، لكنه لم يفعل ذلك إلا بعد أن دخلا الحياة العملية بالفعل، خاصة حمد، الأصغر، الذى قضى سنوات السبعينات مبتعدا عن ثروة العائلة، محاولا أن يجد لنفسه سُبُلا أخرى. إلا أنه عاد فى النهاية، واستقر فى البيت الكبير، دون زوجة أو طفل.

arabworldbooks.com

جلس الحاج نبيل مع الولدين يحتفلون، قال لهما:

"ما أول شيء تفعلانه وقد أصبح كل شيء باسمكما؟

قال خالد:

"أريـد أن أوسع من مشروع الخيول، ربما أتحول إلى الإنتاج السينمائى، الأمر مربح بالفعل، وقد بدأت أفهم كثيرا فى هذه الناحية."

وقال حمد:

"أنـا أفكر فى افتتاح شركة سياحية، لأقوم بأخذ أفواج مـن السـياح لزيارة المناطق الأثرية فى مصر، يمكننى تنظيم رحلات كاملة، وسوف أحب ذلك كما أحببت الطواف دائما."

كانت أمهما تقول له:

"المشكلة أنك دائما تريد الفكاك."

نعم، أحب الفكاك، الطيران، السير فى أماكن لم أطرقها مـن قبل، أحب أيضا أن أعيد تأمل الأماكن التى أحبها مرات ومرات. كم وقفت فى مدخل الكرنك أنظر من بين الأعمدة إلى قـدس أقـداس بعـيد، باب داخل باب داخل باب، وفى عمق المنظور أيضا باب، ثم وجه مضيء، وجه واحد مضيء.

وأحب الطيران أيضا، أسافر داخل مصر، أرى نفسى أتحـرك مـن مكان لمكان، لو خلقنى الله طائرا لكنت السمان، أرحـل فى الفصول المختلفة بين الشمال والجنوب، وقد أطلق غريـب علىّ هذا الاسم يوما، قال لى أنت تحب السفر كطيور السـمان. وصدقت ذلك. كان غريب موحيا وهو يقوله، كعادته

arabworldbooks.com

دائما. ربما لهذا وحده استقر فى قناعتى أننى لا مكان لى. أعنى لا استقرار فى مكان. سوف أطير دائما، بلا توقف، لكننى أعرف أننى فى النهاية أعود إلى البيت الكبير.

نعم، وأحب أن أقف ساعات أمام جدار تملؤه الحروف القديمة، أتأمل كل حرف، وأحاول أن أفهم.

قال الحاج نبيل:

"ولكن عندنا شركة سياحية بالفعل، تلك التى يديرها ابن عمك."

قال حمد:

"أريد شركة خاصة بى!"

قال الحاج نبيل:

"هذا لن يضر، على أية حال، افعل ما تشاء، فقط عليك أن تهتم بالأمر، وسوف نقوم بنشاط جيد معا، أنت تجلب الأفواج السياحية، وأنا أبيع لهم المنتجات التى ستظل الهيمنة عليها لى، اسمعا، هذا الأمر سوف أقوم به حتى آخر يوم فى حياتى."

قال حمد:

"بالطبع، نحن لا نريدك أن تريح وتجلس بانتظار الأجل، إننا نريدك معنا فى كل خطوة. وإن كان افتتاح نشاط جديد يبعث الحيوية فى العائلة، فسوف نعتمد عليك أساسا فى إدارة كل شىء."

قال الحاج نبيل:

arabworldbooks.com

"لا، أنت عليك إدارة شركتك، ولكن وأنت تأتى بأفواجك، ارشدهم إلى محلنا بالنزلة لشراء تذكاراتهم منه، هذا كل شيء."

- ١٦ -

استغرق البحث عن مكان مناسب للشركة بعض الوقت، حكى حمد لمجدى ولعبده الفخرانى عن مشروعه، وعن بحثه عن مكان مناسب للشركة، كان يفكر فى أن يختار لها مكانا فى وسط البلد، لكن الحصول على محل مناسب هناك أصبح مرتفع الثمن بما لا يطاق فى ذلك الوقت. مجدى هز رأسه وقال لحمد: صحيح أنت تحب الحركة والسفر، لكن هل قيادة الأفواج السياحية تناسب ميولك؟ لا أظن، أنت تحب الحركة لكنك تحب الحرية أيضا، وهذا العمل لن يعطيك الشعور بالحرية كما تحب.

لكن حمد رد عليه:

"هل تظن؟ عموما سنرى."

وقال عبده:

"ولماذا فى وسط البلد؟ لماذا لا تأخذ محلا هنا على شارع الهرم؟"

قال حمد:

arabworldbooks.com

"والله فكـــرة لا بأس بها، ربما أبحث فى بعض العمائر الجديدة التى يبنونها على الشارع هنا وهناك."

لكن عبده عاد يقول:

"ولماذا لا تأخذ قطعة أرض هنا بجوارى؟ وتبنى عليها محلك بالطريقة التى تعجبك؟"

تلفت حمد:

"هنا بجوارك؟ أين؟"

ضحك عبده:

"يا أخى سأبيعك قطعة مناسبة من أرضى، ولن أطلب ثمـــنا كبـــيرا، بل الثمن المناسب لمثلها، بل أيضا أنزل لك عن بعض الثمن كهدية منى لجيرتك لى."

كـــان عرضـــا مغريا، وكما كان بداية تحول فى حياة حمد، كان بداية تحول بالنسبة لعبده أيضا، فى ذلك الوقت كانت أســـعار الأراضـــى علـــى شارع الهرم قد بدأت ترتفع أيضا، وجـــرت الســـيولة الماليـــة لأول مرة فى يدى عبده الفخرانى، فاشـــترى بجزء من النقود أرضا أخرى فى نهاية شارع الهرم على ناصية الطريق المؤدى إلى الطريق الصحراوى، أمام ذلك الفـــندق القديـــم الشهير، واستخدم هذه الأرض لفترة كمزرعة صـــغيرة يـــزرع فيها وأولاده بعض الخضر والفاكهة اللازمة للبيـــت. وفى هذا المكان الصغير الجميل، دعا أصدقاءه لقضاء شم النسيم التالى بين الخضرة، وفى الهواء الطلق.

arabworldbooks.com

كان افتتاح شركة السياحة بجوار الفخرانى حدثا بالنسبة لهم، فى ذلك الوقت كان شارع الهرم قد أصبح شارعا مزدحما بالفعل، فى بداية السبعينيات كانت السيارة تستغرق ما لا يزيد على عشرين دقيقة للوصول إلى وسط البلد. أما الآن فى بداية الثمانينيات، أصبحت الرحلة تستغرق أكثر من نصف ساعة، بسبب الازدحام، خاصة عند نفق الهرم الذى كانت الحالة فيه تزداد سوءا يوما بعد يوم، كلما ارتفعت مبانٍ جديدة فى الهرم، وكلما ازداد انتشار المبانى حول الشارع وفى أعماق المكان.

بعد خمس سنوات من ذلك، وعندما بنى الفرن فى دار الفخرانى كانت شركة السياحة قد تم تقسيم مساحتها وأخذ نصف المكان ليصبح محلا لبيع سجاد الحرانية.

دفع حمد مبلغا من المال لعبده الفخرانى ليشترى منه قطعة أرض تكفى لإقامة مبنى صغير من طابق واحد، وجعل له واجهة زجاجية وأثثه من الداخل بما يليق بشركة سياحة، وجلس ينتظر الأفواج السياحية، وبالفعل استطاع الاتفاق على عدة أفواج، وإن كانت قليلة بالنسبة للمكان وفخامته.

مع ذلك كان الحاج نبيل سعيدا جدا والمسألة بدت بالنسبة له وكأنها شىء جديد تماما، كان يفرح بدخول حمد عليه بالفوج السياحى، فى المحل الكائن فى النزلة، والذى كان يبيع فيه المشغولات الفنية اليدوية التى يقوم بها أهل المنطقة من شباب وأطفال، وأحيانا كبار، التماثيل التى كانت تصنع على هيئة تماثيل أصلية، وإن كانت أقل كثيرا فى الإتقان، أوراق

arabworldbooks.com

البردى، المرسوم منها والخالى من الرسوم، بعض المشغولات الفضية والذهبية، كان المحل كبيرا وبه الكثير من الأشياء.

لكن شركة السياحة فيما يبدو لم تعد لها فائدة إلا تحريك الجلسة السائية بضعة أمتار حتى أصبحت فى أنوار الكهرباء العالية التى تصدر منها. اكتشف حمد بالفعل أنه غير قادر على قيادة الأفواج السياحية، وفكرة الحرية التى نطق بها مجدى كانت تلح على ذهنه. ولهذا فكر فى استئجار غيره ليقوم بدور المرشد السياحى، لكن ذلك رفع من تكاليف الأفواج كثيرا، فى وقت كانت الأفواج السياحية فيه قد بدأت تقل، خاصة بعد مقتل السادات وانتشار فكرة الإرهاب. وفكر حمد أنه ربما كان الأفضل أن يفتح محلا لبيع بعض منتجات المنطقة اليدوية، فقسم المحل إلى نصفين، جعل أحدهما لبيع سجاد الحرانية اليدوى الجميل الذى كان يقبل عليه السياح، إذا جاءوا.

- ١٧ -

حتى عندما تعرف حمد على الفتاة الإنجليزية، كانت تعمل لأبيه بعض الأعمال التى كانت قد بدأت تنتشر بين بعض الشباب من الكليات الفنية فى القاهرة لبعض الوقت، كانت ترسم له أوراق البردى بشكل متقن وجميل، وكان الأب يجد ذلك طريفا من فتاة غير مصرية. كانت روزا فتاة تتميز بحيوية بالغة، تهتم بالعمل كثيرا، وفى الوقت الذى كانت ترسم فيه

arabworldbooks.com

أوراق البردى لأبيه، كانت ترسم أوراقا أخرى لتأخذها إلى لندن، كما كانت تأخذ بعض المشغولات الأخرى والمصنوعات اليدوية من النزلة ومن كرداسة. وكان ذلك كله يساعدها على توفير مال معقول تنفق منه على رحلتها. وكان اقترابها من حمد ليدلها على أماكن المنتجات اليدوية فى كرداسة وفى خان الخليلى، وبعد قليل أتقنت كل الطرقات فى القاهرة بذكاء مدهش، وكثرت الألفاظ العربية على لسانها بمرور الوقت.

وفى ذلك الوقت تعلم حمد أن يصنع القوالب ويأتى ببعض النماذج من المتحف، وينتج منها عددا من النسخ يعطيها لعبده الفخرانى ليضعها فىالمحل، وعندما بنى عبده الفرن، أصبح يصنع بعض هذه النماذج من الفخار، وكانت تلقى رواجا كبيرا.

جاء حمد يوما يحمل لفة فى يده، سأله مجدى:

"ما هذا؟"

أخرج من بين طيات الورق قناعا من الخشب، ما إن رآه مجدى حتى دهش، كان مجدى معجبا بكل ما هو مصرى قديم، وربما كانت هذه أول مرة يرى شيئا كهذا. قناع قديم فى يد شخص يسير فى الطريق، لا فى متحف، ولا فى معبد، ولا فى مقبرة، سأل فى دهشة:

"أهو قديم فعلا؟"

قال حمد:

"نعم، هو قديم فعلا، هل يعجبك؟"

arabworldbooks.com

قال مجدى:

"يا إلهى، إنه جميل بالفعل!"

قال حمد ببساطة:

"هو لك!"

كان القناع ينتمى إلى عصر الفيوم، ضاعت ألوانه على مر الزمن ولم يبق منها إلا القليل من الأثر، كما كان به تشكيل من الخشب، وربما كان ينتمى لبدايات عصر الفيوم، قبل أن تتطور المسألة إلى تصوير الوجه بالألوان فقط على لوحة من الخشب، كل ما كان يعرفه هو أن هذا القناع كان من الفيوم عندما أهداه لصديقه مجدى.

وضع مجدى القناع على الجدار فى غرفته، لم تكن قيمته كبيرة، خاصة أنه كان كما قال له حمد:

"توجد منه آلاف القطع، وكلها بها بقايا ألوان، ربما أكثر من هذا."

لكن مجدى عندما كان يتأمل القناع، كان يحلم بذلك العصر القديم، يفكر كيف كان الناس يعيشون فيه، وأية عقيدة دفعتهم لفعل ذلك، عندما سأل حمد كان يقول له أنهم كانوا يقومون بتحنيط الموتى ويرسمون أو ينحتون قناعا للمتوفى لوضعه على وجه المومياء عند الدفن، وعندما أراه يوما ألبوما فيه بعض صور تلك الوجوه، أصابته الدهشة، كان بعضها لا يقل عن فن عصر النهضة الأوروبى. كان هناك وجه بذاته، بل ربما أكثر من وجه، يقترب جدا من المدرسة التأثيرية فى القرن

arabworldbooks.com

التاسع عشر. كيف إذن لا تدرس هذه الوجوه بالدرجة الكافية ويتم تأريخها وفهم مدارس كل عصر من عصورها. نعم كانت لها عصور مختلفة، ويمكن إدراك ذلك بتغير الأسلوب بين الأقنعة التى يفصل بينها حوالى قرن من الزمان. كما كان هناك فارق واضح بين أسلوب الفنان والآخر. وكان ذلك يدهشه، علمه بأن ذلك ليس سهلا، والمشكلة أن أسماء الفنانين لم تكن معروفة كلها، هكذا أخبره حمد، كان يقول إن المسألة لم تكن مسألة فن، وإنما كانت أقنعة وظيفية، فقد كانت هذه الوجوه تُرسم فى أثناء حياة الإنسان، وأن كل إنسان كان حريصا على تصوير بورتريه على خشب لوجهه، فى شبابه على الأغلب، ويعده ليكون على وجهه عند الموت. ليقابل به آلهة العالم الآخر، أو لتتعرف روحه عن طريقها على موميائه عند عودتها إلى الجسد. كانت الفكرة تذهله، ربما كان دورها الوظيفى مما يقلل من قيمتها الفنية كما قال حمد، قال حمد له:

"المشكلة أن هذه الأقنعة هى أقنعة وظيفية، ولم تكن مسألة إنتاج فن."

وسأله مجدى:

"ألم تكن هذه هى بدايات الفن على كل حال دائما؟ ألم يكن يقوم بدور ما فى المجتمع؟ هل كانت المسرحيات الرومانية إلا امتداد لفن وظيفى خاص بالعقيدة؟ وبالسلطة فى النهاية؟"

قال حمد:

arabworldbooks.com

"ولهـذا نحـن لا نعرف الكثير عن المسرح اليونانى والرومانى قبل أن تكون فنا خالصا. وأيضا لا نعلم عن ذلك فى مصـر القديمة، فقد كان هناك مسرح دينى أيضا، لكنه لم يرق إلى الفن الخالص."

قال مجدى:

"أو هكذا يُقال لنا!"

سكت حمد قليلا، ثم قال:

"نعم، ولا نستطيع أن نرفض تماما طالما لم نقتل الأمر بحثا بأنفسنا، الأمر بحاجة إلى جهود كبيرة، ونحن لا نزال نقنع ببعض التوافه وقراءات الآخرين".

أمـا امـرأة مجدى، فقد كانت تنظر إلى القناع بشكل مختلف، كانت تقول إنه ينظر إليها، يدعوها، وقد تذكر مجدى هذه الكلمات بعد موتها، لم تكن تقول أنها تضيق به، لكنها كانت تخشاه إلى حد ما، فى الحقيقة لم يبد أنها تخشاه حقا، لكن مجدى عـرف ذلك أيضا بعد موتها. وعندها كان ينظر إليه متسائلا، هـل حقا كان يدعوها كما قالت؟ هل هذا القناع الخشبى به قوة ما؟ لكنه لم يكرهه، إنما فكر، فى كل مرة ينتابه الشعور بالأسى لموت أحد القريبين منه، بأنه لابد أن يدعوه يوما ما كما دعاها.

فى عينيه الغريبتين، لابد أنهما كانتا ذات يوم مكحولتان بشـكل جميل، بقايا اللون عند طرف إحداهما كان أزرق، أما الحدقتين فكانتا مجرد حفرتين وسط العين، لابد أنهما كانتا يوما ما تحـتويان حجريـن كريمين، سرقا منهما، أو حجرين من

arabworldbooks.com

عجيـــنة زرقاء أو سوداء من النوع الذى كان يستخدم لذلك فى تماثـــيل وأقـــنعة الأقل ثراء من الشعب. وبالطبع انفصلا بفعل الزمن ووقعا من مكانهما، ولم يكن هناك من يهتم بإعادتهما.

كـــان يـــتكون من ثلاث قطع من الخشب، تعشقت كل واحـــدة فى الأخرى بمسامير خشبية كل منها مبيت فى فتحتين متقابلتيـــن، بدقة متناهية، وبجوار الأنف كان الخشب مشقوقا، شقا فعله الزمن، وربما بعض الرطوبة التى تعرض لها القناع فى وقت من الأوقات.

شهد القناع فى غرفة مجدى أحداثا نسيها الزمن، وكان مجدى ينظر إليه وكأنه ينتظر منه أن ينطق بشهادته. لكن القناع ظل صامتا. لا ينطق ولا يبين.

ربما كان ذلك اليوم الذى دخل فيه الحارس إلى غرفته فى يوم اجتمعوا فيه عنده، ربما فى ذلك اليوم، نظر إلى الأمر نظرة جديدة.

جاء الحارس برفقة عبده الفخرانى، وقدمه عبده إليهم: "هـــذا خمـــيس، يعمل حارسا بالهرم، وهو شخصية طيبة جدا، وهو من أول الناس الذين عرفتهم فى النـــزلة."

كان حمد يعرف الحارس، فقد تلقاه ببشاشة قائلا:

"كيف حالك يا خميس؟"

كـــان خمـــيس يـــبدو فى حالة من الاكتئاب، قال وهو مطرق، وبصوت لا يكاد يخرج:

"بخير."

arabworldbooks.com

قال حمد:

"لا يبدو هناك أى خير فى صوتك يا رجل، ما الأمر؟"

قال خميس حزينا:

"لقد أغلقوا المقبرة نهائيا."

قال مجدى مندهشا:

"أية مقبرة؟"

انبرى عبده يقول:

"إن خميس، فيما عدا ما يخص هذه المسألة، رجل طيب وشهم."

نظر خميس نحوه معاتبا، وقال مجدى:

"دع الرجل يتكلم يا عبده، لماذا تريد أن تمارس ساديتك عليه؟"

قال عبده مستسلما:

"هو عندكم، كلوه."

قال مجدى:

"اجلس يا خميس، واحك لنا."

وقال حمد:

"لا تغفل شيئا، وتأكد من أننى سأساعدك قدر ما أستطيع."

قال خميس:

"إنها مقبرة أقوم بحراستها ضمن المنطقة، وبها مومياوان لأمير وأميرة، لكنهما غير عاديين."

arabworldbooks.com

وقال موجها الكلام لحمد:

"أنت تعرف أنهما غير عاديين."

قال حمد باسما ولكن فى رقة طاغية:

"تحدث بما جرى، هل سرقا؟ هل جرى شيء؟"

قال خميس منفجرا بغيظ:

"قلت لك أقفلوا المقبرة، جاء رجال الآثار وأقفلوا المقبرة، قالوا أنها آيلة للسقوط ولا يجب أن يدخلها أحد، ووضعوا على الباب قفلا جديدا ولم يتركوا مفتاحا معى."

قال مجدى فى دهشته:

"لم أفهم شيئا، وماذا فى ذلك؟"

قال حمد موضحا لمجدى:

"إنه رزقه يا أخى."

قال خميس وهو ينظر لحمد لائما:

"أنتم لا تفهمون شيئا، إنهما صديقاى، صديقاى، أحدثهما، أأتنس بهما، أحكى لهما عن حالى ويسمعان، لا أجد من أتحدث إليه غيرهما، لا أحد لى فى هذا العالم."

اقترب حمد من خميس، ووضع يده على كتفه قائلا:

"اهدأ يا خميس، إذا لم يكن لك أحد فنحن موجودون، قل لنا حكاية هاتين المومياوين."

قال خميس:

"لقد حكى مفتش الآثار أمامى، إنهم لا يعرفون اسمى صاحبى المومياوين، ولا يعرفون إلى أى عصر ينتميان، وقال

arabworldbooks.com

لابد أن يكونا قد جاءا هنا فى وقت لاحق على عصر الأهرامات، ربما لتهريبهما من خطر ما، أرأيت؟ هما أيضا غريبان ولا ينتميان إلى هنا مثلى، وكذلك المقبرة، قال المفتش أنها تخص مهندسا من مهندسى الأهرامات، لكن هذا المهندس ليست له مومياء، ولا أى شىء بالمقبرة سوى رسوم قليلة لا يفهم منها الكثير، لكنه يعرف اسم هذا المهندس، أعنى مفتش الآثار المغرور هذا هو الذى يعرف. وقد جاء بالأمس، ووجدنى جالسا معهما فى الظلام، وقال أن المقبرة لابد من إغلاقها، وأنها آيلة للسقوط."

قال حمد بهدوء:

"أنت تعرف يا خميس أنه إذا كانت المقبرة آيلة للسقوط، فإنه لابد من إغلاقها، ودخولك إلى المقبرة وهى آيلة للسقوط فيه خطر عليك."

قال خميس حزينا:

"نعم، ولكن ماذا عنهما؟ ماذا لو سقطت فوقهما؟ هل تظن أنهما يتحملان؟ قلت له آخذهما فى بيتى إلى أن يجدوا لهما مكانا آخر، فاعتبر أننى أتدخل فيما لا يعنينى، فى الحقيقة أنه سبَّنى، واتهمنى بالجنون، وهددنى إن تحدثت بمثل ذلك أن ينقلنى من المنطقة نهائيا."

ران الصمت عليهم، ثم قال حمد:

"اسمع يا خميس، لن تسقط المقبرة طالما لا يدخلها أحد، ولن يصابا بسوء، فلا تخش شيئا، ثم أننى واثق أن هذا المهندس قد أوصى بأن ينقلا قريبا إلى المتحف."

arabworldbooks.com

قال خميس بتوتر:

"يـــنقلان إلى المتحف، ينقلان إلى المتحف، كلما تحدث أحـــد قال ذلك، ولماذا ينقلان إلى المتحف؟ لماذا لا يبقيان هنا؟ ثـــم ألا تعرف أن هذا أخشى ما أخشاه، أن ينقلا إلى المتحف؟ ومـــاذا أفعل أنا عندما ينقلان إلى المتحف؟ إننى أريد أن أرجع إليهما فأراهما وأحادثهما وأتمتع بصحبتهما...."

قال حمد:

"ربما لا ينقلان، إننى أقول ذلك فقط من باب الاحتمال، المهم أن لا يمسهما سوء."

قال عبده مقهقها:

"سوء؟ أى سوء؟ إنهما مومياوان، ما السوء الذى يمكن أن يكون أكثر من ذلك؟"

ولكن حمد أكمل بجدية شديدة:

"ثم إنهم لابد سيقومون بترميم المقبرة، ولن تظل مغلقة للأبد."

قال خميس منكسا رأسه:

"موت يا حمار."

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل السادس

- ١٨ -

حينما لقيت غريب للمرة الأولى، كان يجلس على المقهى فى مكان مكشوف، ينطق وجهه بالبشاشة والرقة معا، يتحدث بثقة أعجبتنى، وبدا من حديثه مدى إلمامه بالكثير من الخبرات، وعندما تحدثنا، أخبرنى أنه يجد فى شخصى خامة جيدة وقابلة للتشكيل، وهذا ما أعجبه.

كان من ذلك النوع الساخر الذى يقول لك عندما يسمع عن افتتاح (مترو الأنفاق) مثلا:

"(مترو الأنفاق) لو كان يحمل البشر ولا يعيدهم لأصبح أكثر الوسائل أمانا لتنظيم الأسرة؟"

أو يقول بجدية من لديه المعلومات الكاملة عن الأشياء التى لا ننتبه إليها:

"كسارات الحجر الجيرى موجودة شرق وغرب الطريق الصحراوى. أوقفت الهيئة الكسارات شرق الطريق، لكنها لم تستطع إيقاف كسارات عثمان فى الغرب، "ثلاثة أرباع الهضبة مطحونة الآن، والربع الباقى هو الذى صنع ملياردير ات السمان."

أو عندما ينهار الاتحاد السوفييتى:

arabworldbooks.com

"وأصبح هذا هو قدرنا، كل أحلامنا أصبحت: "ما كان يعـرف بـ ..." عندما سيأتى القرن القادم بعد عشر سنوات لا غير سنكون نحن Junk، rubbish، سنكون The remains of the last century ، وسـنكون سـاعتها: ما كان يعرف بـ ...، حثالة ما كان يعرف بـ ... القرن العشرين."

أو عندما يكون فى حالة تجلٍ شديدة بعد عدة زجاجات من البيرة:

"ال code العـاطفى، والـذى كـان مفتاح حضارات عظـيمة، كحضـارة مصر القديمة وحضارات العراق وفينيقيا والصـين والهند، وأيضا حضارات الأزتك والأنكا فى أمريكا الوسـطى وغيرها، ثم فى الحضارة الإسلامية، هذا ال code الذى قامت عليه أو كان فعالا فى مثل هذه الحضارات، إذا به، عـندما تتغـير المفاتيح الاقتصادية، يتحول إلى code مدمر. نعم، يتحول إلى مفتاح تدميرى ومخرب لكل ما هو إنسانى."

* * *

ثـم تصاحبنا، وبعد حين وجد أن علاقتنا ستكون أكثر إيجابية إذا أثمرت فى عمل مشترك.

وهكذا بدأت الحكاية.

قال لى:

"هناك أرض فى الصف."

قلت:

"أى أرض؟"

arabworldbooks.com

قال:

"فـيم نـتحدث منذ الأزل؟ هل أنت نائم؟ هناك أرض واسـعة، أرض لا نهايـة لهـا، كل ما علينا أن نخرج الماء، سـنذهب يـوم الجمعة القادم، وسنراها، وعلينا أن نعرف مدى صـلاحيتها للـزراعة، يقولون إنها صالحة جدا، وأن الفلاحين هـناك يزرعون ما يستطيعون إصلاحه منها، علينا أن نذهب ونرى، هل تأتى معنا؟"

كانوا يتحدثون كثيرا فى هذا الأمر بالفعل، وكنت أظن الحديث بعيدا عنى، فيم يريدوننى، أى شىء يمكن أن أقدمه فى مـثل هـذا الأمر، كانوا يحلمون بالزراعة، وكان لدى عائلتى مساحات غير قليلة من الأرض، لا أحتاج أرضا، يتمنى والدى لو فقط أذهب إلى العزبة كما يسميها. الحديث عن أرض جديدة يدور حولى دون أن يشملنى، هكذا ظننت. وانطلق أمير بفكرة أن يـأخذهم إلى الصف. هناك بيت عائلته القديم لا يزال، وهم علـى ما أعلم لا يزالون يمتلكون عددا لا بأس به من الأفدنة، يؤجـرها أمـير بالمزارعة للفلاحين من أبناء بلدته، فقد توفى والده منذ أشهر قليلة، وأصبح يقوم بدوره فى العائلة التى عادت للحـياة فـى الصف فى البيت الكبير، وصف أمير هذا البيت أمامى مرارا وتكرارا، "لدينا فى الصف كذا وكذا ..."، ربما لم يُرد أكثر من أن يثبت لنا أقواله تلك، والتى كانت كثرتها تجعلنا نأخذهـا مـأخذ التندر. أما أن أذهب معهم، لم أفكر بهذا الأمر أبدا. لكن، لم لا؟ فلأجرب ما يفعله هؤلاء.

arabworldbooks.com

كـــان كـــل ذلـــك يدور فى ذهنى عندما قال بعدوانية وسخرية واضحة:

"آه، نســـيت، أنت ابن البك، لست بحاجة لأرض مثلنا، نحن الغلابة."

قلت فى دهشة:

"أنـــت تعلم أننى بحاجة، وأن أموال أبى لا تعنى شيئا لـــى، إننى بحاجة لأن أكون مستقلا، وربما تكون هذه فرصتى للنفاذ إلى المجهول الذى أنتظره."

كنـــت بحاجة إلى المغامرة، للخروج إلى دائرة الحياة خـــارج محـــيط العائلة. كنت أدرك أن هذا الخروج فيه متعة دائمة، وكنت أطمح إلى هذه المتعة، متعة التجريب والمعرفة.

قال:

"حسنا؟"

قلت:

"فقط لم أستعد للذهاب، أريد أن أفكر فى الأمر."

"فيم تفكر؟ ليس عليك أن تفكر، فقط عليك أن ترى، ثم فكر كما تشاء فيما بعد. اعتبرها رحلة، نزهة، تعال وحسب."

كنت لا أزال مترددا، قال:

"تلك الفتاة التى شاهدتها معك فى الجامعة، ما اسمها؟"

"ليلى."

"أهى قريبتك؟"

"تقريبا."

arabworldbooks.com

"ماذا تعنى تقريبا هذه؟"

"إنها من عائلتى، وإن كانت من فرع بعيد."

قال:

"هل بينك وبينها شىء؟"

قلت باسما:

"بالطبع، كل خير."

قال:

"لا تتلاعم."

قلت:

"وماذا يعنيك؟"

"لا شىء، فقط إذا كان يهمك، يمكنك إحضارها معك."

"دعها خارج هذا."

"هــذا جيد، ومعناه أنكما تخططان لحياة مشتركة، ألا تخططان لحياة مشتركة؟"

قرأ أفكارى، قلت:

"ولنفرض، ما دخل هذا بذاك؟"

قال:

"ربما يعجبها المكان، وتشجعك على بداية جيدة هناك."

سكت، لم أعرف بم أجيب، لم يكن يبدو أنه يعرف شيئا عــن التقاليد التى تقول أن الفتاة لا تخرج مع الرجل إلى بعيد، ولا إلى مغلق، لا يبدو أنه سمع عن نظرة المجتمع إلى خروج الفــتاة مــع غريب حتى لو كان قريبا، ولم أكن أظن أن ليلى

arabworldbooks.com

توافق على الخروج معى فى مثل هذه الرحلة مع الغرباء، إلى مكان بعيد، مجهول.

قال:

"أعرف أنك تفكر فيما يقولون أنه عيب، أعنى خروج البنت مع الغريب، لكن مالنا وهذه النظرة القاصرة التى لا ترى المـــرأة إلا من زاوية أنها مجرد آلة للجنس، الحقيقة أن المرأة بشر مثلنا، أليس كذلك؟ وهكذا لها حقوق مثل ما لنا، ومن حقها أن تعامل من الجميع كبشر كامل الأهلية طالما لم تعد قاصرا. أليس كذلك؟"

قرأ أفكارى مرة أخرى، وتغلب على حجتى، لم أعرف ما أقول، هو محق، لماذا ننظر إلى النساء هذه النظرة القاصرة، ولكـــن هذا هو الحال، حتى النساء فى أغلب الأحوال يتصرفن فى المجتمع على أنهن مجرد آلات جنسية، لا بشر، ولا ذوات أحاســيس ومشاعر وفكر وعقل إلخ، حتى ليلى تتصرف هكذا، رغـــم أنهـــا شديدة الجدية، أحيانا أظن أنها لا تفكر إطلاقا فى الجـــنس، ولكـــن فـــى لحظات معينة، أجدها .. تبدو رائعة .. تقريـــبا، فى الحقيقة لم نختل ولا مرة واحدة حتى أعرف بشكل مؤكـــد. ولكـــن أيضا، فى نفس الوقت، تعطينى ذلك الإحساس الأنـــثوى الشـــرقى الشـــهير بالضـــعف والحاجة إلى الحماية، والرغـــبة فى التخفى وإن لم تكن تتخفى، والبراعة فى إظهار الخجل فيما لا يستدعى الخجل، وادعاء الغباء فى أوقات معينة لتعطى الرجل شعورا بالتفوق. كل هذه الأساليب التى يتعلمنها

arabworldbooks.com

من أمهاتهن، كنت أمقتها. وكانت ليلى تتحلى بها بجدارة، رغم ذلك كنت أميل إليها، ثم فكرة أنها ابنة عمى فى الواقع كانت تقربها منى، وخاصة منذ لبست نعمة الحجاب وأصبحت تتجنبنى، ترسب فى مدرستها عاما بعد عام، ويزداد تجنبها لى كلما ازدادت المسافة بيننا.

بعد قليل قال:

"وربما تحضر معك تلك الخواجاية، ما اسمها؟"

قلت:

"روزا."

قال:

"هل هى؟ أم ليلى؟"

عم يسألنى؟ كنت أظن أن روزا مجرد صديقة، ولم تكن علاقتنا فى ذلك الوقت قد تطورت، كانت مجرد صحبة وعمل وصداقة، نعم.

أخيرا قلت:

"سنرى."

لكن الأمور سارت بشكل أسرع مما أتوقع، ربما كان رتم حياتى أبطأ مما أظن، رغم أننى كنت أظن نفسى متعجلا، كانوا هم أكثر عجلة منى، رغم أنهم كانوا يبدون أكثر هدوءا، لكنه الهدوء الظاهرى، الخارجى، الذى يخفى غليانا لا تعرف مداه.

arabworldbooks.com

بعد أيام قليلة، كنا فى طريقنا إلى هناك، وكنت وأنا أقود السيارة بنفسى أعجب لما افعله، ماذا أفعل مع هؤلاء؟ وإلى أين أتجه؟ كان الشىء الوحيد الذى يخفف عنى هو مجيئ مجدى الذى أقنعته بصعوبة، وكنت أقصد أن أبعده بعض الوقت عن منزل حميه وعن أولاده الذين تركهم فى رعاية حماته كما هى الحال منذ وفاة زوجته. وكان معنا أمير بالطبع، كان يتحدث بطلاقة طوال الطريق عن الأرض الموعودة، ويعد بأنه سيقدم لنا الكثير من المساعدة. كان هناك أيضا يوسف، ذلك الفنان الأسمر القادم من أقصى الصعيد، كان قبطيا، وكان شخصا سريع الحركة، متوترا دائما، وكان لا ينفك يقول:

"ما أصعب هذه الحياة."

كانت هناك أيضا فتاة ملازمة لهذا الفنان دائما، فى المقهى معه، وفى الطريق يسيران سويا، كلما القاه ألقاها معه، كنت أظنهما زوجين لكنها لم تكن زوجته، وعندما ذهبت مرة لزيارته فى منزله الصغير فى ذلك المكان البعيد عن شارع الهرم، كانت هناك، فى ذلك الوقت كان البيت يقع وسط المزارع، بيت صغير من طابقين، يسكن فيه ثلاث أسر غيره، لم تكن هناك مياه فى المنطقة، وكانت النساء يخرجن إلى حنفية مياه بعيدة يملأن صفائح المياه، ويعدن يحملنها على رؤوسهن كالفلاحات، ولم تكن المسألة بعيدة، فالمنطقة حول البيت كانت حقولا تمتد إلى مسافات لا نهاية لها، وشارع الهرم والبيوت القريبة منه تبدو بعيدة أيضا. هذه المنطقة تحولت فيما بعد إلى ما سمى بفيصل.

arabworldbooks.com

وعـــندما كنا هناك، كانت أميمة تقوم بكل شيء وكأنها زوجته بالفعل، وكان يقول لها:

"لماذا لا تصنعين لنا شايا؟"

وكانت تقول:

"أنت هكذا، كسول جدا. "

وكـــان أحيانا يغضب عليها، ويتشاجران، ويتشاتمان، لكنهما فى النهاية كانا لا يفترقان أبدا.

وعـــند الغـــروب، قبل الغروب بقليل، أقبلت قوافل من الـــناموس، لم أر فى حياتى ناموسا بهذا الكم، كانت الحشرات الطائرة تملأ الهواء حولنا حتى بدت كسحابة أو ضباب كثيف، وقلت مستغربا:

"ما كل هذا؟"

قال ضاحكا:

"لكى تعرف أن الحياة صعبة جدا."

وعندما كانت الساعة الثامنة قالت أميمة:

"لابد لى من الذهاب الآن."

قـــام معها، وغاب قليلا ليوصلها إلى شارع الهرم، ثم عاد متضايقا وغاضبا على كل شيء، قال:

"الحياة صعبة، لماذا لا تكون أكثر بساطة من ذلك؟"

فى هذا اليوم عرفت أنها ليست زوجته، وأنهما متحابان إلى درجة أنه لا يستطيع فراقها، ولكنه يخشى أن يترك دينه من أجلها، كان هذا كثيرا، تلقيت هذه المعلومات باستغراب، ودهشة أسكتتنى عن أى كلام.

arabworldbooks.com

- ١٩ -

كانت أميمة فتاة صغيرة الجسد، قصيرة ونحيفة، ملامح وجهها دقيقة وبالغة التناسق.

"لا يمكـــن لهذا الأنف إلا أن يكون بين هاتين العينين، أليس كذلك؟"

قـــال يوســـف ذات مـــرة ذلك له، وأمعن حمد النظر. وابتسم قائلا:

"امـــرأتك رائعـــة الجمال يا أخى، لماذا تحسرنا على حالنا؟"

قالت أميمة:

"علـــى أى شىء تتحسر يا حمد؟ الجمال شىء لا يدوم كما تعلم، المهم أن تحصل على المرأة التى تريدها وتريدك".

تتحدث ببساطة وتلقائية، قال يوسف:

"لـــيس الجمـــال، وإنمـــا مثل هذا الكلام الذى يجعلنى أحبها."

عـــندما وصـــل الحديـــث بيـــنهم إلى هذه الدرجة من الحميمـــية، أخـــذت صداقة حمد ويوسف شكلا أكثر اقترابا من صـــداقته بالآخرين من زملاء المقهى، وأصبحت أميمة ترتاح إليه، وتصبح على سجيتها فى وجوده، وتعبر عن نفسها بشكل واضـــح، كان سكن يوسف أيضا القريب مما ساعد على ذلك، أحـــيانا كـــان حمد يذهب إليهما ويأخذهما ويخرجون سويا فى

arabworldbooks.com

جـــولات بالمنطقة، التى كان يحفظها شبرا شبرا. وعن طريق حمد تعرف يوسف إلى بعض التجار فى كرداسة، وأصبح يقوم برســـم الثياب النسائية البلدية التى تعرض فى معارضها، كما كـــان يرسم البردى ليتكسب ما يعينه فى حياته، بعيدا عن أهله بالصعيد.

ولـــم تكـــن أميمة ترتاح كثيرا إلى غريب، كانت تقول أحيانا إنه يبدو شخصا عدوانيا بطبعه، قالت:

"فـــى المقهى ألقاه أحيانا، أبتسم له، أجفل منه، شخص يبدو شديد العدوانية."

"ليس عدوانيا، إنما هو جاف، هذه طبيعته، وماذا نريد مـــن الطيبيـــن؟ هؤلاء لا نضمن صدقهم فى كل الحالات، هذا شـــخص مهاجم بطبيعته، وأنا افضل التعامل مع من يهاجمنى على أن أتعامل مع من يكذب علىّ، أو ينافقنى."

"لقيـــنى ذات مـــرة وابتسم متشفيا: هذا الذى ادعى أنه يحبك طوال الوقت، أتعرفين أنه الآن على علاقة بأخرى؟"

قلت له:

"ماذا يعنيك فى هذا؟"

"حسبت أنه يعنيك أنت؟"

"يعنينى أو لا يعنينى، ليس من شأنك على أى حال."

وقالت أميمة:

"ابتســـم منتصرا. .. عندما أذكر هذا أعرف أنه ابتسم منتصرا."

arabworldbooks.com

ضـــحك يوســـف وهو يقول: "لقد عبر لى عن إعجابه الشديد بما فعلت بالأمس."

"ماذا تقصد؟"

"عندما هاجمت صديقنا ذاك فى المقهى وشتمته."

"نعـــم، لقـــد كـــان بذيئا، وكان يستحق أن يقابل ببذاءة مماثلة."

"لقـــد أعجبه هذا، قال إنه لأول مرة يكتشف فيك مثل هذه المقدرة."

"إننى بالفعل افتقد هذه المقدرة كثيرا، لكن أحيانا لا أقدر إلا أن ألوذ بها."

وكان يوسف يحكى لها عن علاقاتهما القديمة ضاحكا:

"كـــنا نستأجر شقة معا، أنا وهو وصديق ثالث، كانت الخادم تأتينا ونتناوب عليها نحن الثلاثة."

"ماذا؟ الخادمة؟"

"أليست امرأة؟"

"نعـــم، كـــان غريب هو الأول دائما، فهو يدعى أنه لا يستطيع أن يكون بعد أحد آخر."

"ومن أين يعلم أنه لم يكن هناك أحد قبله؟"

"هـــذا نوع من الكذب على النفس، الكذب على أنفسنا يعطيـــنا راحة كبيرة، كأن نقول ونحن نفعل كل مكروه إن الله غفور رحيم."

arabworldbooks.com

وازدادت علاقــة يوسف وأميمة بحمد قوة أيضا عندما صحب معه روزا وقدمها إليهما، وحكى لهما كيف التقى بها.

كنــت واقفــا فى محل الأنتيكات الصغير فى النــزلة عندما دخلت تريد شراء بعض التذكارات، عرضت عليها بعض الأشــياء وتحدثــت معها، تحدثنا عن التاريخ والآثار، ومصر. طلبــت منى أن أرشدها إلى بعض المقابر فى الهضبة. وعندما جــاء أبــى ووجدنا نتحادث فوجئت أنه يعرفها، وأنها ترسم له بعض أوراق البردى، وتأخذ منه أشياء وتبيعها فى لندن، وقال لى إنها ابنة زبون وصديق قديم كان يقيم بالقاهرة فترة ثم عاد إلى لندن، لكنها كانت تعود من حين لآخر، فقد ارتبطت بمصر، وكانــت تجد متعة فى زيارتها فتقوم ببعض التجارة الصغيرة للإنفاق على رحلتها.

ذهبت معها فى عدة جولات، فى الهرم وسقارة، زرنا مــتحف رمسيس فى ميت رهينة وأدخلتها إلى بيت عم فرحات هــناك، ورحبــت بنا زوجته، كانت سعيدة بالتعامل مع الناس والــناس كــانوا سعداء بالحديث معها بعربيتها الركيكة، وكنت أظــن أنــنا هكــذا أصدقاء، لكنها جرتنى إلى ما هو أكثر من الصــداقة، فى البداية بدأنا نرتبط ببعض العمل سويا، أرشدتها إلى أماكن رخيصة لشراء المصنوعات المصرية اليدوية، كانت تــأخذ قلــيلا من الأشياء المنتقاة التى تعرف كيف تبيعها بعد عودتها إلى لندن.

arabworldbooks.com

ثم دعتنى لمرافقتها فى رحلة إلى الأقصر وأسوان، ولم يرفض أبى، بل قال ضاحكا:

"الخوجاية معجبة بك، لاحظ أنها رحلة عمل ولا ترجع خاوى الوفاض."

وقال خالد ساخرا:

"تتحدث لمن؟ حمد لن يتمكن من التكسب جيدا.."

غضبت، لكنى بلعت ذلك، وربما قررت ساعتها أن أطلب منها مالا لمرافقتها، لكنى لم أفعل. كانت فكرة ساذجة، كنت أعتبرها صديقتى، وكنت أعتبر الصداقة موجبة لعدم المطالبة بأجر على رحلة حتى لو كانت رحلة عمل بالنسبة لأبى، أو لأخى. ثم أن الرحلة ستكون على حسابها، وسأرى أنا هذه الأماكن لأول مرة.

فى الأقصر كانت حجرتينا فى الفندق متجاورتين، وفى الليلة الأولى طرقت بابى، وفتحت لها.

- ٢٠ -

لكن تجربة الصف كانت شيئا جميلا رغم الفشل.

هناك عرفته حقا، هذا الخلق الشارد المتمرد، يخفى حقائق الرقة البالغة والخجل الشديد، الخجل لا يبدو حقيقة عند من يظهر خجولا. الخجل قد يكون كذبا ونفاقا ككل الأخلاق

arabworldbooks.com

الطيبة الأخرى، إذ ما أسهل أن نلبس ثوب الطيبة، وما أصعب أن نلبس ثوب الصدق.

* * *

عندما وصلنا إلى الصف، أرشدنا أمير فى طرقات القرية وهو يلقى السلام عند كل عطفة حيث أسير بالسيارة على مهل فى طرقها غير المرصوفة حتى وصلنا إلى منزله. هناك كان يقف رجلان من أهل القرية يرتديان الجلابية البيضاء، بدا أن لهما قرابة بأمير الذى دعانا إلى النزول. وتحققت يومها من أن أمير لم يكن يبالغ عندما وصف لنا منزله الكبير بالصف، بالعكس، ربما كان وصفه أقل من الواقع، لأنه نسى الألوان، التى كانت بديعة فى هذا البيت من الحجر القديم وسط خضرة حديقة توازى ضعف مساحته أو تزيد، وتزدان بألوان الزهور والثمار المختلفة.

جلسنا هناك تحت تعريشة أمام المنزل، ودخل أمير وعاد بعد قليل يحمل صينية الشاى، ودعا الفتاة لأن تدخل المنزل لتجلس مع النساء.

نظر يوسف فى دهشة وذعر، وكانهم سيأخذونها منه إلى الأبد، لكنها رحبت، ودخلت إلى الدار، تحدثنا عن الأرض، وقال أحد الرجلين بثقة:

"الأرض كثيرة، والفلاحون هنا يستصلحونها باستمرار، دائما يقوم الفلاح بالحفر فى الصحراء المجاورة لأرضه، كل عام يضيف أصحاب الأراضى الواقعة على حدود الصحراء

arabworldbooks.com

أمـــتارا لأراضيهم، وبعضهم، الذى يجاور الجبل، يحفر تحت الجبل حتى يقع جزء منه، وبذلك يضيف لأرضه."

قلت متسائلا:

"الجبل؟ أليس صخريا؟"

قال أمير:

"إنه طفلى، وبه عرق لامع كالذهب، ويقول بعضهم أنه ذهب بالفعل."

كـــان ذلك الحديث يذكرنى بخميس، فكرت أن آتى به، لابـــد أنـــه سيسعد هنا، وسيعمل الكثير لمساعدتنا، كان خميس صعيديا أسمر، شديد الطيبة، رغم أنه كان شديد الحساسية. إلا أنـــه كـــان قـــوى البنية، طويلا، عريضا، وقادرا على العمل لساعات طويلة دون أن يكل. ومن المؤكد أننا كنا بحاجة لمثل ذلـــك. كما أننى فكرت أن ذلك قد يشغله قليلا عن المومياوين اللتين على وشك أن تسببا له حالة من الجنون.

وقال أمير:

"سنفطر، ثم نتوجه إلى هناك، سنرى كل شىء."

مـــنذ وصـــلنا إلـــى هناك، اتخذ أمير مظهرا مختلفا، أصبحت له نظرة غامضة، وكأنه كان يرى فى عمق المستقبل، أو أنـــه فـــى الحقـــيقة كان يحاول أن يرسم خططه فى عمق المســـتقبل، مستقبلنا، كان أكبر رجال عائلته بعد أن مات أبوه وعمـــه وتركا له عائلة من النساء والصغار، لكن يبدو أن أهل القـــرية كانوا يقدرونه، رغم أنه كان يعيش خارجها. كانت أمه

arabworldbooks.com

بعد وفاة والده قد عادت إلى القرية ومعها أخوته الصغار، أما هو فظل فى شقتهم فى النزلة يذهب منها إلى الجامعة، ويزورهم كل أسبوع بانتظام تقريبا. وكان يبدو أكبر من سنه وهو يحاول أن يبدو شديد الاحتراس فى كلماته، هذا الاحتراس الذى بدا مخالفا تماما لشخصيته التى نعرفها، لكنه فيما يبدو، يتخذ هذه الشخصية المختلفة بشكل تلقائى نوعا بمجرد أن يكون وسط أهل بلدته، وكأنه يرتديها مع ارتدائه للجلابية البيضاء والعباءة وإمساكه بالعصا كأى فلاح من أهل الصف، أو بمعنى أصح، كأى فلاح يعيش حياة أقرب إلى الثراء فى قريته. والواقع أننى حرت فى تفسير هذه الصفة فى شخصية أمير، ولم أجد سببا لها إلا نوع الدور الذى يبدو مطلوبا منه وسط أهله ومنذ وفاة والده.

جاء الإفطار، كان مكونا من اللبن والقشدة والفطير وبيض مقلى، وخبز مصنوع من القمح المخلوط بالذرة، كنت أعرف هذا الخبز، فقد كان شبيها بما تصنعه أمى دائما، لكن غريب صاح بفرحة طفل:

"هذا هو الخبز وإلا فلا."

وقال يوسف:

"هذا هو ما نفتقده فى حياة المدينة."

لم أكن أعيش بعيدا عن المدينة، لكنى كنت أعرف أنهما محقان بالفعل، ففى نزلة السمان حيث أعيش ما زالت النساء فى البيوت القديمة كبيتنا يصنعن الخبز بأنفسهن، أما فى

arabworldbooks.com

البـــيوت الجديدة التى سكنها الأغراب من مختلف أنحاء البلاد، فكـــان خبزهم هو المصنوع فى الفرن، وكان سيئا للغاية، كنت إذا اضـــطررت إلى تناوله فى بيت أحد أصدقائى أيام المدرسة أصـــاب بتعـــب فى معدتى، وتقول أمى دائما هذا بسبب الخبز السيء الذى يصنعونه فى الأفران.

وقبل أن يأكل يوسف سأل عن فتاته، قال له أمير:

"إنها فى الداخل، تفطر مع أمى وأخواتى."

سكت على مضض، وعندما دار الشاى، قال يوسف:

"أرجو أن تناديها لتأتى معنا."

وقف أمير على باب المنـــزل ينادى باسم نفسه:

"يا أمير ..!"

خرجت إليه فتاة ترتدى ثوبا ريفيا ملونا، وقال لها:

"نادى الأستاذة لتذهب معنا."

جاءت أميمة، وتحركنا صوب الجبل.

- ٢١ -

ركبنا السيارة وانطلقنا، معنا الأصص الخمس، الطريق بعيدة وتمتد بطولها ترعة كبيرة، الضفة الطينية السوداء تمتلئ بالخضـــرة، أشجار الكافور العجائز ترتفع وتتهدل أوراقها، بين الأغصان طيور الحقل تبيت.

arabworldbooks.com

قـــال أمير: "لماذا هذه الأصص؟ لم نطمئن على كفاية الماء بعد؟"

قال غريب: "نريد أن نضع بعض الخضرة فى المكان، حـــتى لـــو فشـــل كـــل شـــىء، سنكون قد كسبنا بعض اللون الأخضر."

قال أمير: "فى الحقيقة لا تهمنى الخضرة ولا الأخضر، ماقـــيمة اللـــون الأخضـــر؟ ما قيمة أى لون فى الحقيقة؟ كلها درجات من الرماديات، كلها بين الأبيض والأسود."

وتساءل يوسف بابتسامة: "فلماذا تريد أن تزرع؟"

قـــال ساخرا: "أريد أن أزرع لكى أكسب مالا وطعاما، وليس حُبّا فى اللون الأخضر."

قـــال غريـــب: "عندك حق، المال والطعام هما أهم ما يعيـــن على الحياة، لكن ما يؤدى إلى تحقيقهما قد يكون جميلا أيضا، كالخضرة."

قـــال أمـــير باســـما فـــيما يشبه السخرية: "أنا لا أفهم الخضرة كلون، وإنما كشىء صالح للأكل."

وكانت تلك إحدى المرات القليلة التى تجاوزت سخرية أمـــير فـــيها إلـــى نـــوع من العمق، ولو أن الأغلب أن أكثر الحاضرين لم يفهموا ما يقصد فى الواقع.

كـــان العجـــوز هناك جالسا إلى جوار النبت الصغير وبضع نخيلات صغيرات.

arabworldbooks.com

وأتيت بالشجيرات الخمس فى الأصص، قلت له: "تريد أن نزرع هذه عندكم."

قال: "حسنا."

زرعنا شجرة المانجو فى الزاوية الشرقية، ليقطف منها الرائح والغادى، وزرعنا الفتنة فى الشمال، لتحمل الريح نسيمها إلى باقى المزرعة.

وعند الغرب زرعنا السروة، وزرعنا الكافورة فى الجنوب.

أما الصفصافة فغرسناها عند الماء، كما تحب دائما، تنحنى عليه وتميل برأسها نحوه، وتدلى شعورها إليه، تهمس له ليل نهار، تفضى إليه ويفضى إليها، يعطيها الحياة والرحيق، وتبوح له بأسرار لا تنتهى، أسرار كل من يلجأ إلى مكمنها، ويطمئن إليها.

وهناك تركناها، تركناهم جميعا، وعدنا.

- ٢٢ -

كنا على وعد باللقاء ثانية هناك بعد أيام قليلة بعد تدبير بعض المسائل، منها المال الذى وعدت بتوفيره، وبعض الفحوص لعينات أخذناها من التربة والمياه الجوفية، وهذه تكفل غريب بالقيام بها، أما أمير فقد تكفل بإنهاء الأوراق الخاصة بالأرض. اتفقنا على عمل شركة بيننا، وأن يكون المكان نفسه

arabworldbooks.com

هو مقر هذه الشركة. وهكذا تحركنا وقد رسمنا خططنا كاملة، لإصلاح الأرض، وبناء بيت واحد فى البداية على أن تتبعه بيوت أخرى. كان حلما بديعا يبدو تحقيقه قريب المنال، لكن الأمور سارت على عكس ما نشتهى.

خرجت من المنزل كالعادة فى الصباح الباكر ونزلت إلى الجامعة، كانت الشوارع فى حالة غريبة من الازدحام والفوضى، والناس يسيرون كالمجانين، كانت سيارة السرفيس التى أركبها تقطع الطريق بسرعة بينما كنت ألاحظ الناس يتصرفون بطريقة غريبة. قلت لمن حولى:

"ماذا دهى الناس؟"

قال السائق:

"ربنا يستر.. الناس ها تتجنن .."

وسألنى المجاور لى بازدراء:

"ألم تقرأ جرائد الصباح؟"

كنت معتادا على قراءة الجرائد فى الجامعة، كنا نقرأها أنا وزملائى ونتناقش فى الأخبار، لم أرد قائلا لنفسى:

"سأعرف كل شىء عندما أصل إلى الجامعة"

لكن الجامعة كانت فى حالة فوضى مرعبة، وقد تجمع الكثير من الطلبة داخلها وخارجها. لقيت بعض زملائى، وعرفت الأمر. كان الطلبة يتجمعون لعمل مسيرة إلى مجلس الشعب، لكن الأمور سارت عكس ما يشتهى الجميع، رغم أن المسيرة تمت على أى حال.

arabworldbooks.com

ازدادت الفوضى، وعمت شوارع مصر كلها. ووجدت نفسى منساقا وسط ذلك كله حتى ساعة متأخرة من الليل، وفى النهاية عدت سائرا حتى الهرم. وفى اليوم التالى لم أنزل، لم تكن هناك أية مواصلات، ورفض أبى أن آخذ السيارة. وبعدها كان حظر التجول والقبض على عدد كبير من الناس، منهم صديقنا أمير، والفنان يوسف وفتاته أميمة.

أما غريب فلم يدخل السجن، لكنه كان هاربا، مختفيا.

ظل المسجونون فى سجنهم شهرا، ثم خرجوا دون اتهام بأى شىء، فقط "إفراج".

"إفراج".

حتى الإفراج لم يخرجهم قبل مضى خمسة عشر يوما أخرى.

- ٢٣ -

فى يناير أيضا ١٩٧٧، حُبست روزا فى الهرم. كانت قد جاءت فى الصباح الباكر كعادتها إلى النزلة، ولم تستطع العودة. استضافها أبى فى بيتنا، ربما كانت هذه بداية تقاربنا الحقيقى، قضت ذلك اليوم فى بيتنا، دخلت المطبخ مع أمى، وتحادثت مع أخى وأبى، وفى اليوم التالى عندما استيقظت متأخرا من نومى وجدتها فى بيتنا. تسامرنا طويلا، نام الجميع وجمعنا الحديث حتى قرب الصباح. ووجدتنى أحكى لها عن تجربة الصف، وفوجئت بها تتحمس لها وتفكر معى فى أشياء

arabworldbooks.com

مفـيدة، كـأن نحاول استغلال طاقة الرياح والطاقة الشمسية. ووجدت أفكارها لا بأس بها، فبيت هناك يحتاج لإدارته بطاقة نظيفة لا تسبب تلوثا للمنطقة، وعرضت أن تجلب لنا من لندن بعض الخلايا الشمسية لنبدأ التجربة. وعندما تساءلت إن كانت هـذه الأشـياء مكلفـة، قالـت إنها يمكن أن تقدمها كنوع من المشاركة، فهى تتمنى لنفسها مكانا كهذا، وتتمنى أن تساعد بكل الطرق الممكنة.

كانـت تعـرض ببساطة أن تكون شريكا فى التجربة. أصـابتنى الحيرة ولم أعرف إذا كان زملائى سيقبلون بهذا، ثم فكـرت أنهم سيقبلون طبعا إذا كانت روزا هى امرأتى. لأول مرة يخطر على بالى هذا الخاطر، نظرت إليها، والتقت عيوننا، لكـنى أدرت رأسـى. المشكلة أننى كنت فى حيرة من أمرى، فهـناك حبى القديم لنعمة الذى حيرنى لأنه انتهى إلى نوع من الإحباط من سلوكها تجاهى الذى لم أفهمه بعد ارتدائها الحجاب، وتباعدها عنى. كذلك ابنة عمى التى من المفترض أن أتزوجها، لكنها أيضا فيما يبدو ترى شيئا آخر وتتجنبنى خاصة من بداية سـفرى إلى الصف ومحاولتى مع أصدقائى خلق مجتمع جديد وزراعـة أرض جديدة. كانت ترى أنه نوع من العبث المضيع للوقـت. وأن علـىّ أن أهتم بدراستى بشكل أكثر جدية. لذلك كانت مفاجأة روزا لى مضاعفة.

كـنا نـتحدث حـتى اقترب الصباح، واستيقظت أمى مندهشـة لأنهـا لم تجد روزا نائمة إلى جوارها كما فى الليلة

arabworldbooks.com

السابقة عندما كنت أنا خارج البيت وعدت متأخرا جدا، نادتها أمى لتنام، وذهبت إلى غرفتى وقد شغلنى التفكير فى الأمر.

- ٢٤ -

كانت روزا تعمل بلا هوادة حتى تنجز ما تريد، وهو أمر كان يحير حمد كثيرا، فى البداية كان ينظر إليها كخوجاية، وبعد قليل وجد فيها مقدرة على التقارب والفعل. لكن ذلك الحاجز النفسى الذى وضعه بنفسه فى البداية بينه وبين أية امرأة، لم يصب فى الحقيقة سواها.

وعندما صحبها معه إلى الصف دهش الجميع، لكن الدهشة لم تطل، وقال غريب:

"إذا قلت لنا إنها معك، فسنقبلها على علاتها."

كان قولا غير لائق من غريب، وخاصة أنه سبق أن اقترح على حمد أن يأتى بها، لكن هذا الإنسان كان دائما متناقض الأقوال والأفعال. قال حمد ببعض الحدة:

"هى معى، طبعا، وإلا لماذا جئت بها؟"

أثبتت روزا فى أيام قليلة أنها تعمل كأى فرد منهم، تزرع وتبنى وتشارك فى كل شىء. بل إنها بمرحها الدائم كانت تخفف عنهم الكثير، ونشأت بينها وبين أميمة صداقة غريبة، وسعدت أميمة بوجود امرأة من جنسها. واكتشف حمد وهو يتأمل علاقتهما أن النوع الجنسى للمرأة، ربما أهم من

arabworldbooks.com

القومية، وخاصة مع فتاة مثل أميمة. الأمر سوف يختلف حتما لـو كانت روزا مع امرأة أخرى. وبعد قليل كان حمد ويوسف يتـبادلان نظرات متوجسة، ربما سوف تتفق المرأتان عليهما، وعلى الرجال الآخرين. ربما أصبح بوجود روزا هناك حزب نسـائى وحزب رجالى، وهو أمر لم يفكر فيه أحد عندما كانت أميمة وحدها معهم. كانوا يرغبون فى تقسيم العمل بحيث تقوم المرأتان بأعمال الخدمة وإعداد الطعام، ويقوم الرجال بالأعمال الشاقة، لكن روزا وأميمة رفعتا راية العصيان على هذا التقسيم، وطلبـتا المساواة فى تقسيم العمل، وهو أمر عجبوا له، فلماذا ترغبان فى العمل الصعب فى الحقل والبناء؟

وكـان أول صـدام لهما مع غريب، الذى كان ينصب نفسـه قائدا على الجماعة، وبدا فى هذا الموقف مختلفا عن كل ما يقول به من المساواة بين الجنسين، وفكر حمد أن الحقيقة أن الكلام شىء والفعل شىء آخر، فغريب نفسه لا ترى زوجته فى أية مناسبة، أليس كذلك؟ حتى فى هذا الوقت ليس لديه استعداد لإشراكها معهم. ولكن الواقع أننا قد نظلمه هنا، فربما هى نفسها لا ترغب فى المشاركة. المهم أن غريب برر الأمر قائلا إنه لا يسـتطيع أن يفهـم لماذا تزجان بأنفيهما فى أعمال لا يمكنهما القيام بها أصلا؟

لكـن الفـتاتان أصرتا، وأخيرا لم يجدوا إلا الإذعان، وقال غريب:

"حسنا، افعلا ما تريدان، لكن لا تراجع، ولا شكوى."

arabworldbooks.com

ضـــحكت روزا وأمـــيمة لانتصـــارهما فى معركتهما الصغيرة، وقالت أميمة:

"المهم ألا تشكون أنتم!"

فـــى الواقـــع كانتا تعملان بالفعل كأى واحد منهم، وتم تقسيم أعمال الخدمة وإعداد الطعام على الجميع بالمناوبة. وكان حمـــد يزداد دهشة من إصرارهما، وحيويتهما، وسرعتهما فى الإنجاز، خاصة حين كان العمل يشملهما معا.

- ٢٥ -

الأرض كانـــت رطـــبة، وهـــناك جلس عجوز تحت النخلات القليلات، يصلى.

بعـــد أن ســـلم ألقينا عليه التحية، قام واقفا ورحب بنا، لكنه كان ينظر متسائلا.

عندما عرف ما جئنا له هز كتفيه:

"أقول لكم؟ هنا يوجد ماء، احفروا هنا وستجدون الماء، الأمر بحاجة إلى ماكينة جيدة."

وبين الكلمات، قال ذات مرة:

"المشكلة أنهم سيتركونكم تفعلون كل شىء، ثم يأخذون الأرض منكم."

دهشنا، أميمة أصيبت بفزع، قال غريب:

"من؟ لا أحد يستطيع، لن نتنازل عنها بسهولة."

arabworldbooks.com

هز العجوز كتفيه ونظر إلى الأفق.

كنا نعمل حتى الوقوع تعبا، كنا نخشى إنفاق الوقت بلا طائل، كانت هناك أرض تحتاج الكثير من الصبر والكد.

كان لابد أن أنزل إلى الهرم لأحاول الحصول على بعض المال من أبى لشراء طلمبة جيدة.

وعندما عرف أبى لم يعلق، فتح الخزينة التى يحفظ فيها المال فى غرفته، وقال لى: هذا المال مالك وأخوتك، خذ ما تشاء منه، لكن اعرف دائما أنه لك ولأخوتك.

وكانت أمى فى هذا اليوم سعيدة بعودتى بعد غيبة تقارب الأسبوعين، جلست أتحدث معها طويلا، وأثناء الغداء قالت لى:

"خذ أخاك معك، ليعرف مكانك. ألا يجب أن نعرف كيف نصل إليك متى كنا بحاجة لذلك؟"

كان خالد جالسا ومنهمكا فى طعامه، قال لى:

"فكرة جيدة، لم لا؟ سوف آتى معك غدا."

قلت له أننى يجب أن أعود فى الصباح الباكر.

أطرق قليلا، ثم قال:

"غدا يجب أن أذهب إلى الخان، هناك عمل خاص بالمحل ولا يجب أن أترك الوالد وحده، يمكن أن نترك ذلك لفرصة أخرى، أو، أقول لك، بعد الغداء ارسم لى خريطة للمكان، وسآتى إليك."

arabworldbooks.com

لكـــن خـــالد لم يأت معى أبدا، لا إلى الصف ولا إلى غـــيرها، وحـــياتى التى قضيتها متنقلا بين أماكن كثيرة، كانت دائمـــا بعيدا عنه. ولطالما سألت نفسى إن كان هو من يدفعنى دائما بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الترحال مرة بعد أخرى.

اشـــتريت كـــل المطلوبـــات، وقبل العودة بحثت عن خميس، لم أجده. ذهبت إلى عبده الفخرانى، ليلتها سهرت معه أمام محل الفخار الذى كان قد اتسع وامتدت واجهته على شارع الهـــرم. وكان بيته أيضا قد اتسع وأصبحت به حجرات عديدة، كما زاد عدد أبنائه. وامرأته لا تزال جميلة بعينيها المكحولتين دومـــا وثوبهـــا المـــزركش، يزيـــن صـــدرها عقد من الفضة والكهرمان.

سألته عن خميس، ورد على الفور:

"أىّ خميس يا صاحبى؟ اليوم الثلاثاء ..!"

ضـــحكنا، وتندرنا بعض الوقت، لكنى كررت السؤال بعد قليل.

"لـــك أســـبوعين وأنت بعيد، خميس كان هنا منذ أيام قلائل، لقد جُن."

"جُن؟"

حكـــى لـــى عـــبده، جـــاء خميس وكان مجدى عنده، وأخـــبرهما خمـــيس، بعينيـــن مذهولتين، أن المومياوين اللتين تركهما فى المقبرة، قد عادت إليهما الحياة، وجاءاه فى بيته، أو غرفته على الأصح.

arabworldbooks.com

قال عبده أنه كان يبدو فى حالة ذهول وهو يحكى لهما ذلك، وكانت عيناه زائغتين.

ضـــحكت، لا شـــىء يستبعد من خميس، لكنى قررت الذهاب إليه.

فـــى وقت متأخر اتجهت إلى البيت الذى يسكن غرفة على سطحه فى نزلة البطران. ناديت عليه، خرج لى وهو يغلق الباب خلفه قائلا:

"هش شش .. سيستيقظان."

"هما مين يا خميس؟"

نظر لى لحظة:

"أين كنت؟"

"كنت فى الصف، هما مين؟"

سكت لحظة أخرى، ابتلع ريقه، قال بهدوء:

"صديقان فى ضيافتى."

"سمعت كل شىء من عبده يا خميس، لم لا تثق بى؟"

وضع يده على شفتيه محذرا:

"إياك وإلا يسمعانك!"

لم أرد الاستمرار طويلا فى هذه اللعبة، وخاصة لأننى كنت مجهدا وبحاجة إلى السفر فورا.

قلت له:

"كنـــت أريـــدك معـــى فى رحلة إلى الصف، نحتاجك هناك، وسوف .."

arabworldbooks.com

قاطعنى:

"لا أستطيع، لا يمكننى أن أتركهما."

حاولت إقناعه بشتى الطرق، ولم أفلح. أخيرا قررت تأجيل الأمر لوقت آخر.

عدت إلى الصف أحمل جرائد الصباح التى لم نعد نقرأها إلا نادرا. كان الوقت مبكرا جدا، كانوا قد عادوا كلهم منذ الليلة السابقة، وكان غريب مستيقظا.

قال لى:

"اقرأ لى بعض اخبار اليوم."

وقرأت له.

انتخابات نقابة المحامين يوم الأربعاء القادم.

وقاطعنى:

"نقابات، نقابات، المرء لا يعرف أى نقابة ينضم اليها، فلا توجد نقابة للأنبياء مثلا."

أنبياء؟ أذهلتنى الصورة، وبدأت أتساءل لأول مرة إن كان غريب هو الآخر مجنونا، واستمر يقول:

"ثم أنك فيما يبدو لا تعرف كيف تقرأ الجريدة بالطريقة السليمة."

تناول الجريدة من يدى وهو مستمر فى التوضيح:

"أعنى، لنفهم ما وراء كل خبر، فمثلا هذا الخبر نقرأه هكذا: افتعالات فعالة المفاعيل يوم الأربعاء الفاعل، أترى؟ الآن يفهم الخبر على وجهه الصحيح، هى افتعالات، هذه الانتخابات

arabworldbooks.com

مجـــرد افـــتعالات، وهـــؤلاء المحامين مجرد مفاعيل، وليسوا فاعلين، هذا هو الحال فى الحقيقة، معظمنا مفاعيل بكل أسف، أو بـــدون أســـف، وعلى أى شىء نأسف؟ كلنا مفاعيل، المهم، أرأيت كيف تُقرأ الجرائد؟ هكذا نفهم الأشياء بسهولة."

وضحك تلك الضحكة الصافية المنطلقة، التى يضحكها معبرا عن السعادة حين يكتشف شيئا جديدا.

نظر إلى الجريدة وعاد يقرأ:

"ومـــثلا هذا الخبر: فعل الفعول وتفعيل فعال الفواعل للفاعليـــن بالفعولـــة والفعـــال العام. (وكان الخبر رفع الأجور وتطوير نظام الحوافز للعاملين بالحكومة والقطاع العام)، هؤلاء الفاعليـــن ليســـوا إلا مفعوليـــن، فمـــا الذى يفعلونه؟ ثم أليسوا موظفين؟ أى مفعولين، فالخبر يكذب نفسه.

والقراءة بهذه الطريقة تجعلك تفهم أكثر، وتفعيلة الكلمة توضـــح معناها الأصلى كما تعلم خذ مثلا هذا الخبر: "استفعال ٥٠ ألف فدان من الأراضى الصحراوية"، هكذا وضح لنا مدى الكذب الذى يحمله، فصيغة استفعال هذه قصد بها الإحالة بالفعل علـــى من لا يفعله، أو ادعاء الفعل فى الواقع الذى ليس فيه أى فعـــل، وانظـــر لـــو كان الخبر هكذا: إصلاح ٥٠ ألف فدان، وتفعيلة اصلاح هى إفعال، وهذه تحمل معنى الجدية والصدق، والخـــبر طـــبعا لـــيس فيه إفعال حقيقى من أى نوع، إنما هو استفعال فى استفعال. ما علينا، أين باقى الرفاق؟"

قلت:

arabworldbooks.com

"لا أعلم، لقد أتيت لتوى."

قال:

"لا فائدة، لابد أنهم نائمون."

وقال:

"قلنا ألف مرة ناموا مبكرا. نائمون! حتى الآن؟ أرأيت كيف استيقظ قبلهم جميعا، رغم أنى آخرهم فى النوم، ألم أكن ساهرا بالأمس حتى الخامسة صباحا؟ ألا ترى أننى أعمل أكثر منهم؟ لكن ما علينا، ضع الفحم على الموقد، ومن لا يستيقظ منهم ليصطبح، فيبقى يتمسى !!"

وضحك غريب سعيدا بتوريته.

وبعد لحظة صمت، ضحك مرة أخرى وهو يشير إلى خبر تحويل بعض المؤسسات إلى شركات قابضة، قائلا:

"وبمناسبة مسألة الشركات القابضة هذه، نريد شركة قابضة لمجلس الشعب، يرشح لها الوزراء، فيصرفوا ويقبضوا، وربما يكون عزرائيل رئيس هذه الشركة، فهو أشهر القابضين. ثم يتم تعيين عشرة من الشعب يكونون هم المبشرين بالجنة."

وعاد يضحك فى حالة هستيرية.

- ٢٦ -

هل رأيت الجرح كيف أصبح اليوم؟

ونظرت، رائع، لم أتخيل أنه يلتئم بهذه السرعة.

arabworldbooks.com

هذه جروحى، وهكذا أنا.

*　　*　　*

جلـــس حمد إلى جوار العجوز حتى انتهى من صلاته وسلم.

نظر إليه، فقال حمد: "حرما."

قال: "جمعا إن شاء الله"

مضى وقت من الصمت والسكون. ثم سأل حمد: "من هم؟"

قال العجوز: "الأيام ستعرفنا كل شىء، لماذا نتعجل؟"

سأل حمد: "لكن .. هل نمضى؟"

قـــال العجـــوز: "وما فائدة أى قول إذا كان كل شىء مقدرا"

قال حمد: "فبماذا تنصحنا؟"

قال العجوز: "اتقوا الله، واحذروا لدغات العقارب."

سأل حمد مندهشا: "لم أر أية عقارب هنا ..؟"

قال العجوز: "المشكلة أن تراك هى .."

قال حمد: "فكيف نعرفها؟"

قال العجوز: "استفت قلبك .."

نظـــر حمد إلى كل من حوله، واستفتى قلبه، لكن قلبه كان يتوه فى غمامة لا تبين شيئا.

arabworldbooks.com

- ٢٧ -

ثم جاء جبابرة الأرض.
بعد أن أخذنا عينات من التربة ودرسناها.
بعد أن غرسنا وسقينا.
بعـــد أن وقفـــنا هناك على التل الشرقى، نتأمل الأفق البعيد، ونحلم بالمستقبل.
بعد أن جرحت أيادينا بالحفر بحثا عن الماء حتى انبثق من نبع صغير.
وبعـــد أن بنينا جدرانا أربعة ننام فى أمانها، وبعد أن غرسنا وسقينا.
جاء جبابرة الأرض.
وفى النهاية تركنا كل شىء. رغما عنا، نعم، لكن تركنا كل شىء.
ونظرت.

* * *

لـــم يكـــن أحـــد من المجموعة يعرف أن أمير، الذى اســـتقدمنا وعـــرض علينا المشروع برمته سوف يبيعنا لأول مشتر، لكن أمير لم يبعنا فى الواقع. وإنما باع الأرض فقط، أما نحن فلم يكن لنا أى قيمة فى حساباته النهائية. كان إغراء المال جيدا بالنسبة له، وبمثل هذا المال كان يمكنه أن يشترى بضعة أفدنة من الأرض المزروعة فعلا فى القرية. التصقت بى روزا

arabworldbooks.com

ونحن نخرج من هناك، وانهمرت دموعها. كان ثمة خطأ حقيقى فى الموضوع من أوله، وكان الخطأ هو الثقة التى وضعناها فى أمير لتولى الأمور القانونية.

ذهبت بروزا إلى مكان إقامتها القديم فى القاهرة، شقة فى باب اللوق كانت لا تزال باسم والدها الذى فضل الاحتفاظ بها حتى بعد مغادرته للقاهرة. وهناك تركتها وكأن شيئا لم يكن، وعدت إلى النزلة. عاد مجدى أيضا حزينا، وحتى أميمة عادت إلى بيت أهلها تاركة يوسف، تفرقنا كل إلى طريق.

- ٢٨ -

كنت أعرف أننى سألقاك فى يوم ممطر.

كنت أعرف أننى سألقاك خارجة من تحت المطر وشعرك المبلل قد التصق بجبينك، وانفك قد احمر بردا.

* * *

هل رأيت الجرح كيف أصبح اليوم؟ وهل كنت رأيته بالأمس حينما كان غائرا؟

أقفل الجرح على آلامه.

أقفل الجرح بابه، وما عاد يبوح.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل السابع

- ٢٩ -

بعد فشل مشروع الصف عدت إلى الانتظام فى الدراسة بالجامعة، حاولت تناسى كل شىء، وتجنبنا جميعا اللقاء لفترة من الزمن، خاصة غريب الذى كان يشعل فينا الحماس. أما يوسف فكنت أراه من حين لآخر ونتجنب الحديث فى الأمر. ومجدى، ما أغرب ما ابداه مجدى من رد فعل، كان يضحك ساخرا من كل شىء، وكان يقول كل هذا كان منتظرا من أمير ومن غريب أيضا، لم نتناقش كثيرا، لكنه كان يقول لعبده الفخرانى:

"إنها لعبة الحياة نفسها، هذا الأمير قال لنا فى البداية لكننا لم نفهم كلماته. قال إنه لا يفهم الخضرة إلا كشىء صالح للأكل، شخص مصاب بعمى الألوان، كيف يرى الحقيقة؟"

وضحك مرة أخرى:

"واتضح أننا نحن العميان، نحن الذين لم نرى الحقيقة الواضحة عندما جاء بنا جميعا لنصلح له الأرض فيتمكن من بيعها. أما غريب، فقد سرنا خلفه أيضا كالعميان، وكان قادرا على أن يجعلنا نمتثل، كان قادرا على أن يضغط على مناطق ضعفنا، ويدفعنا فى طريق يريده لنا."

arabworldbooks.com

أما روزا، فقد قالت لى ببساطة:

"مـــا الـــذى يبقيـــنا هنا؟ تعال معى إلى لندن، يمكنك اســـتكمال دراســـتك هـــناك، ويمكن لنا أن نعمل أشياء كثيرة، الـــتجارة الـــتى أقوم بها تدر بعض الأموال التى قد تكفى لنا، ويمكننا التوسع فيها. أفكر فى فتح محل للمصنوعات اليدوية فى لندن، سوف يكون شيئا جديدا، وسوف يعمل ويربح، ولن ننقطع عن مصر لأننا يجب أن نقوم برحلات لانتقاء الأشياء بأنفسنا."

ثم قالت:

"اسمع، أبى سوف يأتى لقضاء رأس السنة فى الأقصر، إنه يفعل ذلك كل عام، وقد وعدته أن أقضى معه بعض الوقت هناك، لماذا لا تأتى معى، وبعدها نسافر إلى لندن؟"

قلت:

"سأفكر فى الأمر."

حـــتى روزا فقـــدت حماســـها، وشعرت بإحباط بالغ. وكانـــت فكـــرة السفر معها لا بأس بها، لكننى رأيت أن أهدأ وأعـــيد التفكير، خاصة أننى كنت فى مرحلة من الأسى وعدم الاتزان. كما أن مشاعرى نحو روزا لم تكن مستقرة أيضا، ظل ذهـــنى يعاود التفكير فى نعمة التى استمريت أشعر بأسى بالغ تجاههـــا بعـــد أن لبست الحجاب ورفضت رؤيتى أو الحديث معى، ربما نوع من الشعور بالذنب لا أدرى سببه. وكانت بنت عمى قد بادرت وتزوجت من رجل آخر أثناء وجودى بالصف. ورغم أننى لم أكن واقعا فى غرامها، إلا أن هذا الأمر ضايقنى

arabworldbooks.com

بشدة، شعرت وكأنها كانت حقا لى انتزع منى رغم أننى كنت أتمنى فى قرارة نفسى أن يحدث ذلك. لا أعرف أية مشاعر تلك المزروعة فى نفوسنا تجاه النساء، ربما كانت روزا هى الوحيدة التى صدقت نحوى، ومع ذلك لا أزال أعيش فى أوهام الطفولة وكأننى لم أنضج أبدا.

- ٣٠ -

عندما دخلت من الباب الأمامى كانت الحديقة فى حالة ظـــلام، كـــان القمر قد غاب خلف السحب وثمار البرتقال فى الشجرة تبدو قاتمة اللون. لم أره وأنا أتجه إلى باب البيت حتى نـــادانى، كـــان جالسا هناك تحت الصفصافة على مقعده الذى اعـــتاد أن يجلـــس عليه فى الصباح وفى أمسيات الصيف مع ضيوفه. كان ذلك غريبا، فقد كان الجو باردا، وكان والدى يكره البرد، لكنه كان جالسا هناك ملتفا بعباءته السوداء، اتجهت إليه قائلا: "أليس الجو باردا على هذه الجلسة؟"

قال: "اجلس."

قلت وأنا أجلس بالفعل: "ماذا هناك؟"

سكت قليلا ثم قال: "ماذا تفعل فى قسم التاريخ هذا؟"

قلـــت باسما: "هل سهرت تنتظرنى فى هذا الجو البارد لتسألنى هذا السؤال؟"

ضحك قائلا: "أعنى .. هل تدرس الآثار؟"

arabworldbooks.com

قلت: "ليس بالضبط، لكن ما دمت فى قسم التاريخ فلابد أننى أدرس شيئا عن الآثار على ما أظن، ما الأمر؟"

قال: "هل تستطيع أن تعرف الفرق بين الحقيقى والمزيف؟"

اعتدلت مستغربا: "ما الأمر؟"

قال: "أجبنى، هل تستطيع أن تعرف الفرق؟"

قلت: "لا، أنا لا أدرس فى كلية الآثار كما تعرف، هذا الأمر يحتاج إلى متخصص."

قال: "ولكنك تعلمت الكثير من الأشياء فى رحلاتك مع فرحات، أليس كذلك؟"

سكت قليلا، تذكرت عم فرحات وكيف كان يرينى ويشرح لى ما الفاسد وما الصالح، ربما لم أكن أفهم ساعتها ماذا يقصد بذلك، وبرزت الفكرة إلى رأسى فجأة مع كلمات أبى. قلت: "لكنى لم أدرس فعلا، إنها مجرد فكرة بسيطة، وفى الواقع تبدو غائمة فى ذهنى، الأمر فعلا بحاجة إلى متخصص!"

قال: "ومن أين لنا بالمتخصص؟ ماذا تفعل فى كليتك هذه؟"

ثم اعتدل فى جلسته وقال بصوت عميق: "المتخصص الذى كنا نعتمد عليها مريض بمرض خطير، وربما يموت قريبا".

قلت دون وعى: "عم فرحات؟"

قال بنبرة حزينة: "نعم، عم فرحات"

arabworldbooks.com

وتـــنهد تنهيدة قصيرة، ثم عاد يقول: "ولا أريد اللجوء لمـــن يعرضنا لمشاكل لا داعى لها، ليس لدى الآن من أثق به، وأنا أرى أنك قادر على القيام بهذا الدور إذا ركزت فى الأمر."

لم أعرف ماذا يريد حقا، وسألته ضاحكا: "هل سنعمل فى تجارة الآثار؟"

قال بنبرة غيظ: "وماذا نفعل إذن طوال الوقت؟"

حملقت فى الظلمة، كانت ملامح وجهه غير واضحة، يبدو أن سكوتى طال حتى أنه قام من مكانه، وقال قبل أن يتجه إلى داخل البيت: "كل المطلوب منك هو أن تعرف الفرق، عليك أن تعمـــل علـــى تحقيق هذه المعرفة بأسرع ما يمكنك وإلا قد نضطر إلى البحث عن شخص غريب."

كانـــت المفاجأة هائلة. المفاجأة؟ هل كانت حقا مفاجأة؟ أمـــا كنـــت أعرف؟ وكنت سادرا فى عماى المفتعل، أما كنت أعرف؟ من أين لهم بكل هذه الأموال التى ينفقون منها وينمون تجارتهم الهزيلة؟ إذا مررت بمحل ابن عمى رأيته يجلس وسط مكان واسع يبيع فيه بضع علب من السجائر وبعض زجاجات المـــياه الغازيـــة لا أكثر، فهل هذا هو كل مصدر رزقه؟ وهو يعيش فى هذا القصر الفاخر وله هذا العدد من الأبناء؟ لابد أنه يعرف، ولكنه يتظاهر بعدم المعرفة.

العـــزبة؟ هل كانت العزبة تدر من المال ما يكفى لكل مظاهـــر الـــثراء التى تنعم بها العائلة كلها؛ حتى الشباب منهم مـــثلى يملكـــون سيارات خاصة بهم، وكل واحد يُبنى له بيت

arabworldbooks.com

ليتزوج فى سن مبكرة؟ وكل طلباتهم مجابة؟ وبيوت العائلة كلها تدار على مستوى من الثراء الواضح دون التفات لمن تعلم أو من يعمل أو من ...

مفاجأة، لم أتوقعها؟ الآثار وأبى؟ ولماذا لم أتوقعها؟ لأننى أسير معمى العينين لا أرى ما وراء أنفى، لأننى أعيش فى عالم خيالى لا أضع فيه قدمى على أرض حقيقية. أجرى وراء السراب مع مجدى وغريب ويوسف وأميمة وروزا، وليلى، حتى ليلى، ابنة عمى التى كانت سرابا وزوجها أبوها أثناء وجودى فى الصف رغم أن غيابى لم يطل لأكثر من أشهر قليلة.

جلست على المقعد الخشبى القديم تحت شجرة الصفصاف العجوز أنظر إلى النجوم، والقمر لا يظهر إلا نصفه بين غيوم الليل القاتمة. لم أجد شيئا فى انفعالى يمكن أن أديره فى عقلى، قمت ودخلت إلى غرفتى. ارتميت على فراشى بملابسى، كان الانفعال منهكا أكثر مما أنهكتنى الرحلة، ولم أستطع النوم. ماذا أفعل؟

كنت أحس بالاختناق، خرجت فى الفجر والظلام يحيط بكل شىء حولى، انطلقت إلى مكانى المفضل على التلة خلف الهرم الأوسط، أنظر إلى الأفق المظلم، أحس بوحدة هائلة، أى مكان هذا الذى أحبه؟ إنه مكان الظلام والنهاية، هذه هى مقابر القدماء أمامى، وخلفى مقابر أحفادهم، مقابرنا اليوم، لا فاصل بينهما، إلى جوار أبى الهول، أمامى مباشرة وأنا أنظر نحوه.

arabworldbooks.com

جعل السؤال يلح على عقلى، ولا من مجيب. فى النهاية فكرت أنه لن يكن هناك من يجيبنى على هذا السؤال سوى الأستاذ عبد الستار، هو الذى يمكن أن أثق به إلى هذه الدرجة.

وبمجرد أن بدأ الضياء ينتشر فى الأفق، نزلت من فوق الهضبة، كانت الشوارع لا تزال قاتمة وساكنة. اتجهت إلى مسكن الأستاذ عبد الستار القريب من منزلنا، طرقت الباب، كانت الشقة تبدو فى حالة إظلام تام. بعد قليل فتح لى بعينين مثقلتين بالنوم، أدخلنى وهو فى حالة من الدهشة وقائلا: "لحظات، أغسل وجهى، ما رأيك فى أن تصنع لنا شايا حتى أعود إليك؟"

- ٣١ -

وأنا أضع الشاى على الموقد الصغير كانت الفكرة قد تمكنت منى، ولم لا؟ روزا تدعونى وأنا بحاجة إليها أيضا، تريد أن تأخذنى معها، ولم لا؟ لندن بعيدة، ولكن ليس إلى هذا الحد، وفكرة الابتعاد عن أبى وأخى وأمى وعمى وأولاد عمى وحتى بنات أعمامى، حتى نعمة التى كانت تلقانى تحت السلم فى بيتها وتتلوى وأنا أقبلها، ثم تفلت جريا إلى الطابق الأعلى حيث تسكن. كان زملائى يعرفون أمها، الراقصة العجوز، التى عفا عليها الزمن، ولم يعد يزورها الكثيرون كما كان الأمر وهى فى عزها، لكنى لم أعرف إلا هى، ثم انهارت ولبستها

arabworldbooks.com

العفاريت، بعد أن لبست الحجاب وأخذت كل يوم تسب أمها وجدتها وكل من يدخل البيت.

أريد أن أهرب بعيدا، وروزا وسيلة لا بأس بها، أصابنى بعض الخجل وأنا أقول ذلك لنفسى، والواقع أننى أميل إلى روزا، ولولا كل تلك الفوضى فى حياتى لوقعت فى غرامها. ولكن لماذا ألتفت إلى كل تلك الفوضى وهى فوضى، لماذا لا أقر وأعترف بأن المرأة الوحيدة والممكنة لى هى روزا؟ ولماذا لا أفتح قلبى وعقلى وأنسى كل هذا الأسى؟ أحيانا أجدنى ككثير من المصريين مغرما بالحزن، أغرق فيه حتى أنسى نفسى وحياتى.

- ٣٢ -

وضعت الشاى على المائدة الصغيرة فى غرفة الجلوس، وجاء الأستاذ عبد الستار، كانت الشمس ترسل ضوءا كليلا من خلال فتحات الشيش، وفتح الأستاذ عبد الستار النافذة، فغمرت الغرفة.

قال وهو يتناول كوبه: "ما الأمر؟"

قلت له: "ما رأيك لو أسافر مع روزا؟"

قال: "ألم تقل إنك لا تريد ذلك؟"

قلت: "نعم، ولكن .."

قال: "ماذا حدث؟"

arabworldbooks.com

قلت: "أفكر بأن أسافر معها، ربما هكذا أفضل."

أطــرق الأستاذ عبد الستار قليلا، ثم قال: "إذا كنت قد قــررت ذلــك فلن يستطيع أحد منعك، تذكر فقط أنك لن تجد الراحة الحقيقية بعيدا عن هنا، الحقيقة أنه فى السفر سبع فوائد كما يقولون، والتجربة مطلوبة، لكن المشكلة هى أن السفر مع روزا ... أعنى، هل سألت نفسك إذا كانت روزا أفضل شريكة لك. هل ترى فكرت ماذا ستفعل مع ابنة عمك؟"

قلت: "ألا تعرف أنها تزوجت بالفعل وأنا بالصف؟ ألا تــرى أنهم لا يرون فىّ شخصا مؤهلا لأى شىء؟ الآن السفر أصبح حلا لا بديل له بالنسبة لى، كما أن .."

سكت، كنت أريد أن أتحدث عن نعمة، لكننى سكت.

قال: "هل تريد ذلك؟"

قلت: "أريد، لم لا؟ أريد أن أرى بلادا أخرى."

قــال: "ماذا ستفعل فى دراستك؟ أنت لم تكمل الجامعة بعد؟"

قلت: "ألا يكون من الأفضل أن أكمل دراستى هناك؟"

قال: "لا أعرف، يبدو أنك قررت بالفعل."

فــى الحقيقة عندما جئت كنت أريد أن أحكى ما حدث مــع أبــى، لكنى وأنا أصنع الشاى كنت قد هدأت بهذه الفكرة خاصة، ورأيت فيها حلا لكل ما أنا فيه.

أخى ومشاكله الدائمة معى، أبى وتجارته البائسة، أمى وسيطرتها على الجميع، أختى وعلاقتها غير المفهومة بأستاذها

arabworldbooks.com

الجامعى العجوز، العجوز. هذه العلاقة رغم إقدامها على إتمام خطوات الزواج من ابن لإحدى العائلات الأخرى بالنزلة. الهزيمة فى الصف، البتر الذى حدث فى علاقة يوسف وأميمة، ربما كانت علاقة يوسف وأميمة من الأشياء التى هزتنى وملأتنى أملا، ثم كانت القطيعة بينهما لتهزنى وتملأنى يأسا. مظاهرات ١٨ و١٩ يناير أيضا ملأتنى يأسا، والأحداث التى تلتها من دخول أقرب أصدقائى السجن بلا مبرر، يوسف، أميمة، أمير، وغيرهم، سخرية أخى من أرباب السجون الذين أعرفهم، كل شىء كان يدعونى للرحيل.

وسألنى الأستاذ عبد الستار: "ولماذا لا تذهب إلى الأقصر؟"

"الأقصر؟"

"يمكنك قضاء شهر على الأقل هناك قبل سفرك، وربما تعجبك الإقامة. فكر قليلا، صديقك الفنان يوسف ذاهب إلى الأقصر، ربما سيقضى عامين فى مرسم الأقصر. وإذا ذهبت ستجد صحبة ممتعة، وربما تجد عملا، أنت تفهم قليلا فى الآثار وتدربت على العمل فى السياحة."

قلت ضاحكا ضحكة ساخرة: "تدربت على العمل فى البيوع السياحية..!"

وجدت الفكرة طيبة، ربما يكون ذلك أفضل من السفر إلى لندن، وسأكون قريبا، سأدرس كل ما أجده بالأقصر جيدا، أحببت الفكرة، وخاصة لأن روزا كانت قد أخبرتنى أنها تود

arabworldbooks.com

الذهـــاب إلى الأقصر لبضعة أيام قبل السفر إلى لندن، قالت أن والدها سوف يأتى لزيارة الأقصر حيث يحب قضاء فترة رأس السنة من كل عام هناك. وخرجت من عند الأستاذ عبد الستار إلى بيت يوسف فى المكان البعيد عن شارع الهرم.

ضـــحك يوســـف ساخرا: "الأستاذ عبد الستار لا يزال يعـــيش فى الأحلام، أى مرسم فى الأقصر؟ لم يعد هناك شىء يســـمى بمرســـم الأقصـــر، لقـــد تحول إلى فندق سياحى منذ ســـنوات، مثله مثل أى شىء له قيمة فى حياتنا الثقافية، أصبح مزارا سياحيا، فندق، بوتيك، إلخ.."

وســـكت وهـــو لا يـــزال يبتسم ويهز رأسه، ثم قال: "ولكنـــنى، رغم كل شىء، ذاهب إلى الأقصر سوف أرسم كل شـــىء أجـــده هناك، المقابر والمعابد والتماثيل وأعمدة الكرنك المدهشة. الجبل والنيل والسوق والناس وحقول القصب الممتدة، وبـــيوت القـــرنة فى حضن الجبل. سوف أذهب إلى الأقصر، وأميمة آتية معى"

دهشت، كنت أعلم أنهما قد اتفقا على قطع علاقتهما منذ فترة، سألته: "أميمة؟ ألم .."

ضحك: "لا .. لم.. أنت تعلم أننا لا نستطيع الاستغناء عن بعضنا، أنت تعلم ذلك. كيف أعيش بدونها؟ لقد اتصلت بها وتصـــالحنا، هكـــذا دأبـــنا على أى حال، كلما تخاصمنا عدنا لنتصالح. سوف تسافر معى إلى الأقصر، سوف تهرب من بيت أبـــيها، وســـوف نقضى هناك وقتا غير محدد، لا أعرف متى

arabworldbooks.com

نعـــود. لقد قررنا الهرب من القاهرة ومن أهل أميمة. ستقضى الوقت معا ولن يكون هناك من يسألنا عن علاقتنا."

لـــم أجـــب بشىء، كان يتساءل بين وقت وآخر لماذا تأخرت أميمة عن المجىء.

ثـــم قـــال: "هـــناك بدلا من المرسم، وفى نفس مكان المرســـم، فـــندق يسمى فندق المرسم، هل رأيت هذا القدر من العبثية؟ على أى حال صاحب هذا الفندق هو الحارس الذى كان فـــى المرســـم، ويـــبدو أنه لا يزال يحب فكرة المرسم، وهو شخصـــية رائعـــة، يعـــرف معظم فنانى مصر، ويعرف آثار الأقصـــر حجرا حجرا، وسوف أقيم عنده أنا وأميمة. وإذا أتيت معى أنت وروزا، سنعيش فى فندقه أطول وقت ممكن. أريد أن أرسم هناك. أريد أن أصنع لوحات رائعة، هذا هو الحل الوحيد لمواجهة هذه الحياة الصعبة."

بعد أيام قليلة كنت مسافرا إلى الأقصر فى قطار الليل، ومعـــى روزا، ويوسف، وحده. كانت روزا فى غاية الانفعال، كانت تحب الأقصر، كما أنها كانت ستلتقى بوالدها، ولما عرفت أننا سنقيم بمرسم الأقصر ضحكت، قالت أن والدها سيكون فى نفـــس المكـــان. وكانت سعيدة بالذات لأننى معها وهو أمر لم تتوقعه فى البداية، كانت تظن أننى سأبقى فى النزلة حتى تعود هى من الأقصر.

أما يوسف فقد كان حزينا، أميمة تزوجت، بدلا من أن تـــأتى أتـــاه الخبر بزواجها وسفرها مع زوجها إلى لندن، لكنه

arabworldbooks.com

قـرر أن يـنفذ فكرة السفر إلى الأقصر رغم كل شيء. قرر الذهاب إلى الأقصر لينسى، ويرسم.

كـان فندق المرسم يمتلئ بالشباب من الأوروبيين، بعد وصـولنا بلـيالٍ قليلة كانت ليلة رأس السنة، اجتمع عدد كبير مـنهم يرقصـون ويغنون، كان عم على جالسا فى ركن بعيد يـتفرج علـيهم بسعادة بالغة، كان فى سنوات عمره المديدة لا يمتعه أكثر من مشهد الحب، رقصنا كثيرا، وتبادلنا القبلات عند السـاعة الثانية عشرة، وجاء بعضهم بكيس نوم من ذلك النوع الـذى يقفل بالكامل، بسطه على الأرض فى منتصف المكان، ودخل إليه هو وفتاته، وبدآ يخلعان ثيابهما ويخرجانها من فتحة صـغيرة تركاها فى طرف الكيس، وهم يرقصون حولهما بكل فرحة وسعادة، كمجموعة من الهنود الحمر يمارسون رقصتهم الطقوسية حول قربان. كانت روزا تمسك بذراعى بقوة، وكنت أنـا ممتلئا دهشة، ربما كانت هذه هى المرة الأولى التى أشهد فيها مثل هذا الموقف. جذبتنى روزا إلى جوارها، وبدأنا نتبادل القـبلات، ووقعت عينى على عم على، جالسا فى ركنه البعيد، يتأملنا، ويبتسم.

فى حديقة فندق المرسم التقيت بجاك، والد روزا. كان جـاك إنجلـيزيا أحمـر الوجه رمادى الشعر، يتحدث العربية الفصـحى بإتقان يحسده عليه مدرسو اللغة العربية فى المدرسة الثانوية التى قضيت فيها دراستى بالجيزة. والذين أعرفهم واحدا

arabworldbooks.com

واحـــدا. حكى لى جاك أنه كان يقيم بمصر حيث كان يعمل فى المكتبة البريطانية بالقاهرة، لكن بعد وفاة والدة روزا وهى فى حوالـــى الخامســـة من عمرها قرر العودة إلى بريطانيا، ربما ليبحـــث لنفســـه عـــن رفـــيقة أخرى، لكنه كان مغرما بالآثار المصرية، ولذلك اشترى عدة قطع صغيرة يحتفظ بها فى بيته، ومن ضمن هذه القطع حصل على قطعة من مومياء. يد بشرية ملفوفة بشرائط الكتان التى حال لونها، يحتفظ بها فى مكتبته فى مكـــان خاص، أخذ يحكى لى عن مدى جمالها، واهتمامه بها، قـــال إنه لا يستطيع مفارقتها إلا بصعوبة، وطوال الوقت الذى يضـــطر فيها إلى الابتعاد عن بيته يفكر فيها، ولكنه لا يستطيع أن يقضـــى رأس السنة فى مكان آخر غير الأقصر. هو يحب الأقصـــر أيضا، وله سنوات طويلة لا يستطيع أن يذكر عددها، يقضـــى شهرا من الشتاء فى هذا الفندق كل عام، يزور المقابر واحـــدة واحدة، لم يكن يعرف لمن تنتمى اليد، ولكنه قال مؤكدا إنها يد ملكية.

وقال عم على لى ذات مرة: "هل تعرف جاك هذا؟ لديه يـــد مصـــرية، هـــذه اليد تبعث به كل عام إلى الأقصر ليزور صاحبها الذى لا يعرفه."

- ٣٣ -

كان عم على رجلا من نوع خاص، ضخم الجثة، أسمر البشـــرة، كانت حكاياته عن المقابر والمكتشفات ساحرة بالنسبة

arabworldbooks.com

لحمـــد. كان يقول أنه أرشد رجال الآثار إلى العديد من الأشياء الهامـــة. كـــان يحكـــى عن المقابر حكاية من يعرف تفاصيلها الدقيقة، حكى له تفاصيل لا يعرف بها أحد، كما قال، عن خبيئة الكرنك الأولى (لم تكن الأولى فى ذلك الوقت لأن الثانية لم تكن قد اكتشفت بعد)، قائلا إنه هو الذى أرشد عنها.

قال له: "هل تعرف كيف تصنع قطعة مزورة؟"

ضحك حمد، كان هذا هو موطن الداء الذى لم يكن عم على يعرفه، قال له: "أريد أن أعرف.."

قال عم على: "سوف أريك شيئا مذهلا."

وأمـــر أحد صبيان الفندق، فأتى له بتمثال صغير من الـــبرونز، كان تمثالا بديعا فى تفاصيله، والاخضرار يحيط به وبعـــض أماكـــن مـــتآكلة فى جوانبه، ذهل حمد، إذا رأى هذا التمـــثال لن يقول أبدا إلا أنه تمثال أصلى قديم قدم هذه المقابر المنحوتة فى قلب الجبل.

لكن عم على قال له: "هل تظن أن بمقدورك أن تصنع مثل هذا؟"

قال حمد: "لا يمكن .."

قال عم على: "أنت لست خبيرا، أى خبير سوف يعرف بسهولة أنه مزيف."

قال حمد: "فى الحقيقة أريد أن أعرف!"

قـــال عم على: "ابق معى هنا، سوف تتعلم كل شىء، وأول شىء عليك أن تحفظ آثار هذه المنطقة تماما."

arabworldbooks.com

قال حمد: "لا بد!"

ثلاثة أشهر قضاها يلف المنطقة مع روزا، وفى النهاية وجد أنه لم يلم بكل شىء، قال له يوسف: "إذا كنت تريد ذلك حقا، لا تحسب كم من الوقت قضيته، هناك من يقضون أعمارهم فى دراسة هذه المنطقة."

- ٣٤ -

كان عم على يحب فى حمد رائحة الفنان، لم يكن حمد فنانا، ولكنه كان يحب الفن، ويعشق الآثار، وهذا ما أحبه عم على بالتحديد، كانا يجلسان فى الأمسيات يتحدثان طويلا، وروزا جالسة تفهم نصف الكلمات، ولكنها مستمتعة جدا، وبمرور الوقت كان حمد قد بدأ يحكى كثيرا عن نفسه، وعن حياته وعن والده، كان رأى عم على أن يسافر حمد مع روزا إلى إنجلترا، ولم لا؟ ربما يستطيع أن يتعلم هناك شيئا جديدا، وكان عم على يعرف الكثير عن آثار المنطقة، ويعشق البحث والتنقيب عنها، وعندما فضفض حمد لأول مرة إلى عم على بأمر والده، قال له عم على: "اسمع منى ما أقوله لك، لا تتاجر فى الآثار، لكن اعلم أنك قد تستطيع أن تمنع والدك من ذلك، لكنك لن تمنع كل شىء، تجار الآثار كثيرون، وما دامت هذه تجارة مربحة، فلا يمكنك وقفها. وإنما يمكنك أن تستفيد من الفرصة التى أتتك تسعى، إذا كنت تحب الآثار حقا!! إن لديك

arabworldbooks.com

فرصـــة هائلـــة لترى أشياء لا يراها أحد، هل تفهم ذلك؟ هل تعرف كم من الآثار يسافر خارج مصر دون أن يعلم أحد شيئا عـــنها؟ ألا تعـــرف أن لديـــك فرصـــة لا مثيل لها لرؤية هذه الأشـــياء، وربما تدوينها، وربما تصويرها، وربما عمل نموذج لكـــل مـــنها. كم من المعرفة سوف تضيع منك إذا نظرت إلى الأمر من وجهة نظر ضيقة ومحدودة."

حـــاول حمد أن يتمثل وجهة النظر هذه، لم يكن هناك شك فى أنها جديرة بالاعتبار، وفكر حمد، عليه أن يتعلم أشياء كثـــيرة ليتمكـــن من عمل جدول بالقطع التى يراها، أوصافها، وربمـــا نمـــاذج منها أيضا. من المؤكد أنه أحد أبواب المعرفة والبحث فى هذا الاتجاه.

تذكر الأستاذ عبد الستار، مات فجأة بينما كان حمد فى الأقصـــر، ووصـــله الخبر وهو جالس فى الفندق ذات ليلة، لم يحاول السفر فى اليوم التالى، فلمن يقدم العزاء؟ لا يعرف أحدا من أهله، لم يكن متزوجا، حاول فى الحقيقة أن يعزى نفسه.

حـــاول أن يتمـــثله لو كان قد أخبره بالأمر، ماذا كان يمكن أن يقول له؟

- ٣٥ -

فـــى ذلـــك الـــيوم الغريب، عندما، امتثالا لإرادة أبى، ذهبـــت إلـــى الصـــعيد فى رحلة لن أنساها أبدا. ذلك الدهليز الجـــبلى، والمقـــبرة الواقعة خلف الصخور التى تخفى مدخلها

arabworldbooks.com

تمامـــا، دخلـــنا نحمل مصابيح الهواء، وسرنا بظهور منحنية بعض الوقت، كنت أنا وعم فرحات الذى كان مريضا ويتحامل علـــى نفسه، وكانت هذه آخر رحلاته فى الحقيقة، ومعنا اثنان آخـــران، كان أحدهما محمد الصعيدى، شاهدت بعينى الرسوم على الجدران، كنت أود تصويرها، لكن الصعيدى رفض بشدة، كانـــت فرصة بالنسبة لى لرؤية مثل هذا المكان البكر، الذى لم يـــره أحد من قبل إلا قليلين، وفى الداخل كان واقفا هناك، إناء من الأوانى الكانوبية التى كانت تستخدم لحفظ أحشاء المتوفى، كـــان إنـــاء متوسط الحجم يرتفع حوالى ثلاثين سنتيمترا، من المرمـــر وـــله غطاء على شكل رأس صقر عيناه مفتوحتان، ولـــيس أعور العين مثل حورس. ويا لجمال الإناء نفسه، كانت عروق المرمر تلمع فى الظلمة وكأنها من الذهب، وعلى صدر الإناء كانت هناك أربعة أعمدة من الكتابة البديعة، والتى كانت لا تـــزال مغلقة بالنسبة لى فى ذلك الوقت. لكننى كنت أستطيع لكثرة رؤيتى لهذه الكتابة أن أميز الأكثر جمالا بينها. كما كان يحـــتفظ بـــبقايا من الألوان أهمها بعض الخطوط الذهبية داخل الحـــروف المحفـــورة على الحجر المرمرى، وزاد هذا اللون الذهـــبى جمالا بعض البقع المحمرة منه بسبب الزمن. لم يكن هـــذا الإنـــاء هو كل شىء، كانت هناك أشياء صغيرة أخرى، تمـــثال صـــغير لا يـــزيد عـــن حجم قبضة يد طفل، لضفدع، بتفاصيل بديعة، مطعم بيواقيت خضراء وحمراء دقيقة الحجم، وحجران صغيران من التيركواز داخل محجرى العينين. كانت

arabworldbooks.com

تكـــاد تقفز، عيناها بدتا تنظران فى تحدٍ وتحفز. كما كان يوجد أيضا أربعة تماثيل "أوشابتى" صغيرة، كلها من الحجر، وبعض القطع المتناهية الصغير والتى يسمونها "اللعب".

سألت الصعيدى: "من صاحب المقبرة؟"

قال: "لا نعرف اسمه."

قلت: "اسمه مكتوب فى أكثر من مكان."

قال: "نعم، ولكن من يقرأ هذه اللوغاريتمات؟"

هـــنا ســـمعت عم فرحات ينطق الاسم بصوت هادئ، ســـألته من هو؟ فأشار لى أن هذا يكفى الآن، شعرت بالإشفاق علـــيه، وبالضـــيق فى نفس الوقت للمعلومة الناقصة، يوما ما سأعود إلى هذه المقبرة لأقرأ المكتوب على جدرانها كلمة كلمة، أدركت فى هذه اللحظة أننى أحب هذه الكتابة.

قال الصعيدى أن الإناء لم يكن وحده، ولكنهم "تصرفوا فى الأشياء الأخرى"، لكن هذا هو أكبرها جميعا، وأجمل ما رآه من هذه الأوانى على الإطلاق. كان علينا أن نحمله إلى أبى فى الهـــرم، كانـــت صعوبة الرحلة تهون فى عقلى أمام جمال هذا الإنـــاء الـــذى أخذته إلى أبى، حملته بين يدى، ووضعته على المكتب أمامه، كان ملفوفا فى قطن وقش داخل علبة كرتونية، عـــندما قمت بفض القش والقطن من عليه وهو لا يزال داخل العلـــبة، وظهر وجه الصقر، نظر أبى بدهشة وفرح، قال: "كم هو جميل، كم يساوى فى نظرك؟"

arabworldbooks.com

نظـــرت إلـــيه سعيدا، لأول مرة آتيه بمثل هذا الشيء الجميل، قلت: "أظنه يساوى الكثير."

قال: "نعم، إنه يساوى الكثير بالفعل."

أريـــته الأشـــياء الصغيرة الأخرى، نظر إلى الضفدع بدهشـــة حقيقية، أمسكها بيده فى رقة شديدة، قال لى متسائلا: "هل هى أصلية حقا؟"

قلت: "أظن ذلك."

وسألته: "ماذا ستفعل بهذه الأشياء؟"

نظـــر لـــى طويلا، ثم قال: "من أجلك، لن أبيعها، لكى تفهم أن المسألة ليست مسألة بيع، لكن هذا الجمال النادر يجب الاحتفاظ به، نحن أحق به. سأضع هذا الإناء فى البيت كفازة، وأمـــا الضـــفدع فسوف أحتفظ به فى درج المكتب، إنه يساوى الكثـــير بالفعل، ولا أريد التصرف فيه، كما أخشى أن يسمع به أحد."

بعـــد ذلك وضعنا الإناء الكانوبى فوق خزانة الأدراج الموجودة فى غرفة المكتب. كانت أمى معجبة به جدا، وأطلقت علـــيه: "الفـــازة المرمر"، وبعد قليل كنا كلنا ندعوه بهذا الاسم، وارتـــاح أبى لهذه التسمية أيضا، قال ذات مرة ضاحكا: "الفازة المرمر، اسم أفضل من تضييعه.."

arabworldbooks.com

- ٣٦ -

ربما كانت آراء عم على هى التى أثرت فى حمد وجعلته يمتثل لأبيه وهو يدفعه نحو رحلات بأماكن مختلفة لجلب الأشياء من مكامنها. كان الحاج نبيل يرى أن حمد، فى حبه للفن، وتمرسه بالقطع الأثرية منذ صباه، هو الأصلح لمثل هذه الأشياء، وكان يرى أنه هكذا يتعلم وهو يدخل فى مغامرات من نفس النوع الذى يستهويه، فدفعه إلى رحلات عديدة فى سقارة وميت رهينة، ثم أبعد من ذلك، إلى أسيوط والواحات.

ودفعه ذلك إلى البدء فى دراسة جديدة، مختلفة، للمصريات، وربما كانت هذه الدراسة بالذات هى إحدى الدوافع التى جعلته يرى، فى ذهابه إلى لندن فيما بعد، رحلة مفيدة.

ازداد التصاقه بروزا، وخاصة لأنها كانت تشاركه الكثير من نواحى الدراسة التى كانت ترغب أيضا فى الإلمام بها. لكن اهتمامها بالتجارة كان يبعدها كثيرا عن التعمق فى الأمر، كما أن ضيقها بإضاعته الوقت مع عبده الفخرانى ومجدى وغريب وباقى أصدقاء السهرة عند عبده، كان ذلك يتسبب فى توترات لا لزوم لها. فى نفس الوقت الذى ازدادت هذه الفترات بعد أن اقترح مجدى أن يبنى عبده فرنا خاصا به.

فى ذلك الوقت، كانت الأفواج السياحية قد تضاءلت كثيرا، خاصة بعد خروج عساكر الأمن المركزى فى غضبتهم على أحمد رشدى يحطمون ما يقابلهم، ومن ضمن ذلك نال

arabworldbooks.com

الكثـير من التلف واجهة محله. كان حمد واقفا أمام المحل فى حالة عصبية سيئة، أصابته الدهشة وما يشبه الذهول، وقال له عبده:

"دعهـم يحطمون، ابتعد تماما عن طريقهم، أى تلفيات سـتأخذ تعويضـا عـنها من الحكومة، لقد عوضت الحكومة كـباريهات شارع الهرم فى ١٨ و١٩ يناير بتعويضات هائلة، حتى أن بعضها، والذى كان مغلقا قبلها ولا يعمل بسبب الكساد، استطاع بعدها أن يعود إلى العمل بكامل طاقته.

ضحك حمد وقال: "طيب، لكننى أريد أن أعرف فقط، لماذا التدمير؟"

قال مجدى، الذى كان واقفا بجوارهما يشهد المنظر: لا تسأل لماذا، لا شىء أصبح مبررا فى أيامنا هذه."

كـان منظر الدبابات والسيارات المدرعة الواقفة أمام الجسر المقام على المنصورية لعدة أيام يذكره بمشهد كسارات الحجر الجيرى على الطريق الصحراوى، يذكره بمشهد الثكنات العسكرية التى احتلت حديقة متحف مختار، يذكره بمشهد الساتر والسـيارة المدرعـة والجـنود المدججين بالسلاح عند مدخل كوبـرى الجامعة ومقابل تمثال نهضة مصر. تغير كل شىء، كمـا ازدادت البـيوت وارتفعـت العمارات على شارع الهرم وتحولـت المـزارع إلى أبنية حتى اختفت الخضرة تقريبا من المـنطقة، وخاصة منذ تم قطع أشجار الشارع الكبيرة العجوز جميعها من أجل تجميل شارع الهرم.

arabworldbooks.com

ومـــن ناحية أخرى، كانت قطعة الأرض التى يسيطر علـــيها عـــبده الفخرانى قد ازدادت اتساعا حتى أصبحت تربو على خمسة أفدنة. وأصبح يدفع عنها إيجارا للحكومة باعتباره "وضع يد"، مما أعطاه بعض الأمان، رغم عدم تمكنه من تسوية ملكيتها مع الحكومة بشكل نهائى. لكنه، وخوفا من غدر الزمان كما قال، لجأ إلى شراء قطعة أرض أخرى قريبة من المنطقة، وإن لـــم يكن لها نفس أهمية الموقع الذى تحظى به هذه. ولكنه اشترى الأرض بالقرب من كرداسة، وكان يقول: "هذا للزمن، ما دمت أصبحت قادرا على شرائها، فلم لا؟"

وكانـــت فكرة بناء الفرن من الأشياء التى دفعت حمد لنواحٍ جديدة من الدراسة والبحث، وفتحت له طريقا إلى فواخير مصر القديمة، ثم بعض الأفران الأحدث التى رآها مع يوسف وقراءة العديد من الكتب فى هذا الموضوع الذى جذب اهتمامه بشـــكل طاغٍ لفترة طالت عدة أشهر، كانت روزا خلالها تزداد توترا وإصرارا على السفر إلى لندن.

كـــان عـــم صـــبحى ومحمود العربجى هما المرجعية الأولـــى فـــى بـــناء فرن الخزف، ولكن مع بعض الإضافات التحديثـــية من يوسف وحمد، الذى صمم الفرن ليناسب المكان، فلا يخرج دخانا يزيد من التلوث الذى كان يخشى حمد دائما من زحفـــه علـــى المنطقة من القاهرة، التى كانت فى ذلك الوقت تزداد تلوثا كل يوم.

arabworldbooks.com

كـــان الهـــرم لا يزال أقل تلوثا، يذكر مجدى أن ابنه الصبى كان ينزعج بشدة بمجرد نزوله إلى ميدان الجيزة، حيث كانـــت رائحة العادم الكثيفة تكاد تخنقه، كان الطفل يبكى قائلا: مـــش قادر اتنفس. ورغم أن مجدى كان يتعجب لعدم قدرة ابنه هذا بالذات على تحمل التلوث، إلا أنه كان يعذره.

واليوم كان هذا الابن نفسه هو الذى يأتى بعد مدرسته إلـــى عـــبده الفخرانى، ويقضى وقتا طويلا فى "الفاخورة"، كما أصبح عبده يدعو ورشة الفرن، كان هذا الابن لمجدى يأتى فى الـــبداية ليتفرج كما يقول، لكن يبدو أن الأمر شده للغاية، وبعد قليل، كان يعمل بالفعل مع عبده فى الفاخورة.

وقـــدم حمـــد إلـــى عبده الفخرانى وعم صبحى بعض الـــنماذج الـــتى قـــام عم صبحى بعمل قوالب لها بمساعدة ابن مجـــدى هـــذا وصبى آخر، وأنتجوا عددا من هذه النماذج من الخزف، وكانت تلقى إقبالا، وتزيد من رواج عبده الفخرانى.

- ٣٧ -

لكنى كنت لا أزال مصرا على الرحيل.

الأســـبوع الذى قضيته فى المنيا لم يكن مرهقا بقدر ما كان فرصة لى لدراسة المسألة من كافة الوجوه، ها أنا أشارك فـــى عملية سرقة آثار من أجل أبى وميراث العائلة، والآن لا مفر من الرحيل.

arabworldbooks.com

روزا تنـــتظرنى، أعدت حقائبها، وأنا فى أشد الحاجة للرحيل بالفعل.

وفـــى ليلة الرحيل أعطانى أبى الضفدع، وقال لى: "ما دمت مصرا على الذهاب، خذه معك، هو سيعيدك مرة أخرى."

بعـــد عودتـــى من رحلة المنيا بأيام قلائل، رحلنا إلى لندن.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل الثامن

- ٣٨ -

كنت أسير فى شوارع لندن، وفجأة وجدتها أمامى.

أميمة، بشحمها ولحمها، وحدها، وحدها تماما.

تلاقيـــنا بشوق شديد، كل منا كان فى الحقيقة يحتضن الوطن، قالت ذاهلة: "تعرف؟ كنت أتمنى أن ألقاك، أنت الصلة الوحيدة التى تربطنى بعالم الثقافة القاهرية، منذ عرفت أنك هنا وأنا أتمنى أن ألقاك."

وقفـــنا نـــتحادث بعض الوقت، الوجوه الأخرى حولنا أصبحت بعيدة، أما وجهينا فتجمعهما ألفة واحدة، قلت لها: "ماذا تفعلين هنا؟"

قالت: "أنا هنا مع زوجى، هو يعمل فى إحدى الصحف العربـــية التى تصدر فى لندن، وأنا أدرس فى كمبردج، أحاول أن أســـتفيد مـــن وجـــودى بالدراسة، ونحن نقيم فى كمبريدج ونزور لندن فقط فى أيام العطلة."

ثـــم سألتنى السؤال الذى لا مهرب منه: "ماذا فعلت فى دراستك؟"

قلت محاولا التهرب: "زوجك؟"

arabworldbooks.com

وكأنـــنى لم أكن أعرف بزواجها، وكأننى لم أكن هناك فى أشد حالات يوسف اكتئابا، وكأننى لم أقض بصحبته أصعب الأوقات بسببها هى. وكأننى لم أكن حاضرا حالات التخلص من آثارها حالة حالة، والتى لم تنته إلا إلى اكتئاب شديد لا مخرج منه.

فى هذه اللحظة انتبهت، هناك صوت غريب.

قالت: "ها هو قد أتى!"

نظرت، رجل طويل القامة، وسيم الوجه، كمعظم أبناء نـــزلة الســـمان، يميل إلى البياض، وهو ما يستغرب من أبناء الـــنزلة الذين ينتمون لأصول بدوية، لكن البياض موجود بنسبة لا تعـــد نـــادرة. قالـــت تقدمه لى: "سليمان الجابرى، حمد أبو طالب."

تبادلـــنا النظر أنا وهو، قال مستفهما: "لا بد أننا التقينا من قبل، أليس كذلك؟"

قلت: "ولو فى المدرسة صغارا؟"

قـــال: "وحتى فى المدرسة الإعدادية، كنت تلعب الكرة بعد المدرسة فى الشارع الجانبى، وكنت أتفرج عليكم أحيانا."

قلت: "نعم، أعرفك، لماذا لم تكن تلعب معنا؟"

انهـــار جدار الغربة مع انهيار جدار الزمن، لكن، ظل التساؤل فى وجهى وأنا أنظر لأميمة، لكنها كانت سعيدة، كذلك كانـــت تـــبدو، لم أكن أعرف أن سليمان هذا كان إنسانا نادرا، لكنـــنى عرفـــته، ولـــم أستطع أن أمنع نفسى من الإقبال على

arabworldbooks.com

صداقته، ولم أستطع أن أمتنع عن زيارتهما كل أسبوع أو لقاءهما على الأقل لنقضى العطلة معا، وكتبت إلى مجدى أحكى له لقائى بهما واقترابى منهما وأسأله عن يوسف.

ولم يكن هناك غرابة فى تعمق الصداقة بينى وبين سليمان الجابرى، فقد كان عمله فى الصحافة يجعله على صلة دائمة بالأحداث، ويجعل النقاش بيننا دائما فى حالة حيوية للغاية، وخاصة أنه كان ينظر إلى الأمور من اتجاه جديد بالنسبة لى، ربما كان يساريا بالفعل، وإن كان ذلك اليسار الغربى المختلف فى نظرته، والتى كنت أجدها أكثر تطورا بالفعل، كان ما يحدث للاتحاد السوفييتى فى هذه الأيام يجعل الأخبار والمناقشات مثيرة وحامية. وكان له صديق فى البنك الذى يتعامل معه والدى، عرفنى به ليسهل تعاملى مع البنك. كان من المفيد أن يكون لى شخص أعرفه فى المكان لكراهتى التعامل مع الموظفين بشكل عام، ومع موظفى البنوك بشكل خاص. وكنت أضطر للذهاب إلى هذا البنك لسحب بعض المال الذى كان والدى يرسله لى عند الضرورة، والذى كان المفترض أنه جزء من حسابى لديه وأنا أعمل فى توصيل الحقائب التى كنت أحملها بين حين وآخر بين القاهرة ولندن.

أما روزا فكانت تنظر بألم إلى صداقتى بأميمة وسليمان، ربما كانت فى قرارتها تتمنى أن أعطيها بعض الحب، لكنى كنت أنصرف عنها لأى شىء. ربما ظل مترسبا فى أعماقى أننى أحببت فتاة أخرى، وأن روزا لم تكن إلا نوعا

arabworldbooks.com

مـن الـتعويض العـاطفى، وربما لأن تلك الفتاة التى أحببتها لفظتنى لسبب لم أفهمه.

كانـت أمـيمة تلومنى، ذات مرة صاحت فى وجهى بعصبية: "افرج عن مشاعرك قليلا .. حرام عليك!"

نظـر سـليمان إليها فى دهشة، وقال: "وماذا تعلمين أنت؟"

قالت بألم: "أنت الذى لا تعلم، أنا حضرت علاقتهما منذ البداية، إنه يعيش فى أوهام، يتعلق بطيف لا وجود له، ويترك حاضرا رائعا يفر من بين يديه، يخلق تعاسة لا لزوم لها!"

عـاد سليمان ينظر لى مستفهما، حنيت رأسى وقلت: "ربما يكون كل ذلك صحيحا، ولكن ما حيلتى؟"

قالت أميمة: "ما حيلتك؟ يالها من إجابة، انتبه واستيقظ وعش حياتك، لديك امرأة رائعة فلا تضيعها."

لم أكن قادرا على البوح بما فى داخلى، هل كان ثمة ما يطـرق رأسى دائما بأن روزا ستكون سبب قطيعة بينى وبين بلـدى؟ أو أننى سوف أظل هنا حبيس هذه البلاد إذا استسلمت لحـبها؟ هـل كنت أحبها حقا؟ ولم لا؟ كل هذه الرحلة الطويلة التى تقاسمناها سويا، كل هذه التجارب التى خضناها، هل كانت روزا إلا حبا عميقا يستقر فى داخلى وأنا أرفض مجرد التلويح به لنفسى؟

ولكـن، فـى الوقت الذى كنت بدأت أسأل نفسى هذه الأسئلة، كانت روزا قد بدأت تشعر باليأس والملل، وربما بدأت

arabworldbooks.com

تكتشف أننى عبء عليها، ولست شريكا حقيقيا. وتحولت حواراتنا إلى نوع من الإيذاء المتعمد كل للآخر.

ربما كان انهماكى فى الدراسة أحد الأسباب التى أضافت مزيدا من الأعباء على علاقتى بروزا. وربما العكس، أن ما فى هذه العلاقة من عدم استقرار كان سببا فى انصرافى إلى الدراسة، هذا أمر لم أستطع أن أفهم غوره.

كانت تضيق برحلاتى إلى باريس بين آن وآخر لمزيد من دراسة المصريات، كانت باريس بالنسبة لى أكثر ملاءمة للدراسة، لكن ضيقها ورفضها مرافقتى فى أغلب المرات وملاحقتها لى هناك بالهاتف حتى لا أتمكن أحيانا من التركيز، كان يجعلنى ذلك أحاول العودة دائما بأسرع ما يمكن حتى يطيب خاطرها وتترك لى بعض الهدوء للمزيد من الدرس.

لكن ذلك أيضا ما كان ليطيب خاطرها، وربما أننى كنوع من الانتقام كنت أتعمد إشعارها بمدى التعب الذى أتجشمه من أجل أن أكون معها، ورغم ذلك، كانت ترحب برحلاتى القصيرة إلى القاهرة بين الحين والآخر، وحدى، أو معها، فى مناسبات كثيرة، عندما كان والدى يطلب وجودى. وتلك الرحلات كانت أحيانا بلا أسباب ظاهرة، إلا أننى كنت أفهم أن أبى يستخدمنى بعض الشىء، وما كنت أمانع فى توصيل شىء ما. كان العمل بينه وبين روزا يزداد توسعا، يرسل لها منتجات من النزلة ومن كرداسة ومن الحرانية. فتحت محلا صغيرا فى لندن لبيعها، وكان لها زبائنها، وكنت سعيدا بذلك. كنت أعلم أن

arabworldbooks.com

هناك أشياء أخرى، وسط أحمال المصنوعات اليدوية، له قيمة أعلى، ولذلك كان مطلوبا منى توصيلها بنفسى. ورغم ذلك لم أمانع، كان لدىّ شعور عميق بعدم الجدوى، ليس هذا فقط هو المشكلة، المشاكل كثيرة وكبيرة ولا حلول هناك. أبى وأخى وأبناء أعمامى يعملون بهمة فى أنشطة لا نهاية لها، ولا يمكنك أن تضع يدك بسهولة على أحد مواضع الخلل. وإذا كنت أنا نفسى دخلت مقابر قديمة، وجلبت أشياء من مكامنها، فما الفارق؟ وإذا كان كل شىء بسبيله إلى دمار، وكل ما فى مصر يتراجع وينهزم يوما بعد يوم، فما الفارق؟ وإذا كان مشروع غريب فى الصف قد هزم، مشروع يوسف وأميمة قد هزم، حتى مشروع خميس فى حياة بسيطة مسالمة قد هزم، جميع مشروعات حياتى السابقة هزمت، فماذا هنالك لندافع عنه؟

لذا، كنت أحيانا أسائل نفسى، هل يقتصر الأمر على عدم الاستقرار؟ أم أننى أسمى الأشياء بما يشعرنى ببعض الراحة؟ لم أكن أعرف. ولكن، أما كنت أعرف حقا؟ يظل عقلى يدور بى فى فراغ أننى كنت أعرف دائما، ولكنى كنت أحاول أن أظهر بمظهر من لا يعرف، رغبة فى الهروب من مواجهة أخشاها.

– ٣٩ –

وعدتُ.
كطائر سمَّان هاجر إلى الجنوب.

arabworldbooks.com

وفى الربيع عاد إلى نفس عشه القديم. لكنه عاد منهك الجسد والروح، ربما ما عاد يقدر على رحلة أخرى فى حياته.

* * *

عدت عندما أصابنى التعب، وقد أصابنى التعب بسرعة، لم يمر على ذهابى خمس سنوات.

سرت فى طرقات القاهرة.

منذ جئت وأنا أفعل ذلك يوميا، لم أستطع الابتعاد رغم ما جرى على هذه الشوارع من قبائح.

كأننى ما سئمت أبدا من استعراض العاهات على الأرصفة الكئيبة.

لم أتوقف عن التفكير فى هذا المشهد، ماذا داخل استعراض العاهات هذا؟

نوع من استنزاف الآخرين، ابتزاز الرثاء، عادة قبيحة، لكنها تتحول عند البعض إلى متعة، وأحيانا ثروة. ما الفرق بينها وبين تجارة الأعضاء فى عرف الطب؟ كلها تجارة أعضاء بشرية، بعضها للعرض فقط، وبعضها للبيع. بعضها. وأشخاصهم أيضا متشابهون، الفرق الوحيد فى أن هذا نظيف لامع النظافة، وهذا قذر لامع القذارة، لكن كلاهما لامع، كلاهما فاعل.

هذا قدرنا.

والشوارع، ما جرى على هذه الشوارع؟ أصبحت قبيحة وبشعة، بطونها مبعثرة، أمعاؤها ملقاة على الأرصفة،

arabworldbooks.com

أنهارها تحتلها الآلات الضخمة، آلات بلا عمل إلا أن تدل على مدى ضخامة الإنفاق. ابتزاز آخر. ابتزاز العين فى القاهرة لا ينتهى، بدءا من استعراض العاهات إلى الأوناش الهائلة الارتفاع التى تحفر نفقا تحت الأرض.

***

ثم ماذا فعل ذلك المعمارى الغريب؟

واجهات العمارات الغريبة للقاهرة، طرازاتها المختلفة، بين عصور مختلفة، منذ الطراز العربى ومرورا بالطرز العثمانية والأوروبية، ثم ما يسمى بالحديث، حتى ذلك الحديث ما هو إلا كآبة غريبة، ثم ماذا يهدمون وماذا يبقون؟ ثم.... ماذا قلت لى أنه اسم ذلك المعمارى الذى نحت الحجرة حول التابوت؟

ولماذا تقع مقابرنا الحديثة على بعد خطوات من تلك القديمة؟ كيف يدفنون الموتى؟

— ٤٠ —

خمس سنوات مرت به فى الغربة وكأنه لم يرحل يوما واحدا، لكن أحداث هذه السنوات الخمس كانت كثيرة جدا، وكبيرة جدا، منها أحداث تحتاج أجيالا لهضمها، انهيار الاتحاد السوفييتى وهدم سور برلين، وحرب الخليج التى أسموها عاصفة الصحراء، والتى أطلقت من منطقة تسمى حفر الباطن.

arabworldbooks.com

حفـر الباطـن، ياله من اسم، ربما كانت هذه الحرب هى حفر بواطنـنا جميعا، ليظهر الجميع على حقيقتهم بوجوههم القبيحة وقد سقطت عنها كل الأقنعة.

دخـل إلـى المقهـى، كان غريب جالسا على طاولة جانبـية، ومعـه بعض الأصدقاء الآخرين، وقعت عيناه عليهم على الفور، ها هو صديقى حاد الطباع، قاسى الرأى، غريب، يتـناقش بإخلاص وبلا كلل. وها هو أمير، ماذا جاء بأمير بعد كل ما حدث، لكن هل يملون بعضهم البعض رغم كل نذالاتهم المشروعة وغير المشروعة؟

أمـير يبدو ممتلئا بشكل زائد، وخديه متورمين، ها قد ظهرت عليه خيرات الأرض التى اغتصبها، أو أخذها فهو يرى أنهـا حقـه، على أى حال، ثم باعها إلى شركة من الشركات العملاقـة التى لم يكن لهم قبل بها. لكن لم يكن حمد يتوقع أبدا أن يجده جالسا مع غريب على طاولة واحدة، وتذكر أن أميمة وروزا أيضا لم ترتاحا له أبدا.

سلم عليهم واحدا واحدا، تعليقات لا تنتهى منهم ومنه، تعلـيقات لـبقة مع من لا يعرفهم ولا يعرفونه، لف بعينيه فى المكان. ووقعت عيناه على يوسف.

كـان جالسا على طاولة فى وسط المكان، وإلى جواره جلست تلك الفتاة، ربما كان الجميع يكرهونها فقط لأنها أخذت المكان الرومانسى الذى كانت تحتله أميمة، لأن أميمة هنا كانت رمـزا لشىء هام بالنسبة للجميع، كانت رمزا للحب والبراءة،

arabworldbooks.com

كانت رمزا للرفض أيضا والاختلاف، وبمفردات العصر الآنى، التعددية. الآن لم تعد هناك أميمة، ورغم ذلك ينظر الجميع إلى أنه مكان أميمة، ينظر الجميع إلى أنه لا يليق بامرأة أخرى، أيا كانت، أن تحتله. نظرة رومانسية أيضا، لا تحتوى على أى فهم. (code عاطفى مدمِّر) كانت علاقته بأميمة انتهت منذ سفرها إلى البلد البعيد، بلد الشمال البارد، لكن ربما كان الآخرون يعتبرون هذه العلاقة شيئا يخصهم هم، أكثر مما يخص يوسف وأميمة، وهكذا رأوا فى انتهائها خيانة لأحلامهم، أو لأوهامهم، رغم أن مثل تلك العلاقة ما كان يكتب لها الاستمرار فى مجتمع كمجتمعنا، وهم يعرفون ذلك أكثر من أى شخص آخر.

- ٤١ -

عندما وقعت عينا يوسف على حمد تهلل، وبدت الفرحة على عينيه المحتقنتين بالسُكر، قال ببحته المليئة برائحة الخمر: "أتظل مهاجرا كطائر السمان من بلد لبلد؟"

حاول أن يقوم ليحتضنه، وأخيرا نجح فى وقوف مترنح، وألقى نفسه عليه، ساعده حمد على الجلوس مرة أخرى وهو لا يزال ممسكا به، وقائلا: "ها قد عاد طائر السمان إلى عشه."

ابتسم يوسف ابتسامة متعبة، وقال: "عليك أن تحذر الصيادين المنتظرين على الشاطئ البعيد."

arabworldbooks.com

قال حمد ضاحكا: "ربما علىّ أيضا أن أحذر الصيادين هنا، عند العش."

ماذا جرى له؟ يبدو عجوزا، رغم أنه من نفس عمرى. فكر حمد وهو يجلس إلى جواره محييا الفتاة.

وقال يوسف بصوت متهدج: "عدت أخيرا؟ ماذا فعلت؟ هل أتيت لأبيك بالشهادة التى يريدها؟ اجلس، احك لى، حادثنى، أريد أن أعرف بالتفصيل، كل أخبارك، كل شىء."

هناك السؤال المعلق بعينيه، لم يكن يريد أن يقص عليه شيئا ولا أن يخبره بشىء، لا شك أنه يعرف، ولا شك أنه يريد منه التفاصيل. كانت أميمة هناك لا تزال فى مكانها، رغم الفتاة الأخرى التى كان الجميع ينظرون إليها بغيظ، وكأنها أخذت ما لا تستحق. أو كأنها اغتصبت حقا مفروضا لغيرها.

قدمها إليه: "مارى .. .. سنتزوج."

ابتسم حمد، وقال وهو يهز رأسه إليها: "مبروك"

ثم ليوسف : "أخيرا، ستدخل القفص.. .."

أشار يوسف إلى الساقى، وهو يقول: "أخيرا؟ أنا فى القفص يا صديقى بالفعل، أنا فى المصيدة منذ زمن، ولا أستطيع الفكاك، أنا فى الفخ منذ جئت هذا العالم، منذ حييت هذه الحياة الصعبة "

وضحك وهو يضع الكأس الفارغ جانبا، وعاد يقول: "هل تذكر؟ ظل العمل فى تجميل شارع الهرم لسنوات، بينما كنا نسير وقفنا عند الخيمة الكبيرة التى أقامها المثال المعروف الذى

arabworldbooks.com

يقـوم بعملـية التجميل، ودخلنا إلى الخيمة، كان التمثال الكبير الذى يصور امرأة تقوم أو تحاول القيام قد تم الانتهاء من بنائه بالطين، والعمال يعملون على قدم وساق فى اللمسات الأخيرة، ولـم يكن المثال موجودا، رحب بعض مساعدى المثال بنا، فقد كـانوا يعرفونـنى، ومعظمهم إما من خريجى أو عمال فنون جميلة، نظرت إلى التمثال، قلت للمساعد الذى كان يقف معنا: "ما هذا؟ "الآكس" مائل، هذا التمثال سيقع."

قـال حمـد باسما: "نعم، بعد أسبوع صادفناه فى سكّة زغلول، ضحك قائلا: هل تعرف؟ يومها وقع التمثال بالفعل بعد أن ذهبتم بقليل."

ضحك ضحكته العالية الصافية، وقال موجها الكلام إلى مـارى: "هل تصدقين هذا؟ كان الآكس مائلا، سأقول لك سرا، رغم أنه قد لا يكون سرا .."

واستمر فى الضحك بطريقة بدت تميل إلى الهستيرية: "لقد كنت أحب النحت دائما، أعشق التماثيل، رغم أننى أرسمها مشبوحة"

ثـم عـاد يـنظر إلـى حمد: "أنت لم تر بعد أعمالى الأخـيرة، لقـد دخلـت فى مرحلة جديدة تماما، ألوانى القاتمة أصبحت كالحة.."

واسـتمر يضـحك، وبدأت عدوى الضحك تسرى إلى حمد وهو يتساءل: "كالحة؟ كيف؟"

arabworldbooks.com

"لا، لا.. أقصد أننى دخلت فى مرحلة من البنيات القاتمة المتدرجة مع لمسات من الأزرق، أظن أننى تخلصت إلى حد كبير من مرحلة الأزرقات والرماديات، لا أعرف لماذا كنت أهتم بالرماديات؟ لكن أظن أننى أصبحت مغرما بهذه التونياليتات الغامضة التى تتولد بين البنى والأزرق."

قال حمد، وقد تضاءل ضحكه إلى ابتسامة ولمحة من الجدية: "أهتم بأن أرى ذلك فى أقرب وقت، إننى أحب أعمالك رغم عبوسها الدائم."

وهدأ ضحك يوسف أيضا بعض الشىء، ثم بدأ يغيض فى ابتسامة حزينة: "أعمالى عابسة؟ نعم، لابد أن تكون كذلك، هل تظن أن شخصية مكتئبة مثلى يمكن أن تنتج أعمالا مرحة؟ وخاصة فى حياة صعبة كهذه؟ أحمد الله لأننى أحمل السيانور فى جيبى منذ أعوام طويلة ولا أستخدمه. سأقول لك يا حمد، أنا لن أغضب منك اليوم، أنت قادم من لندن وأريد أن تحدثنى عن لندن، شوارعها، مبانيها، حدائقها، الحياة الثقافية هناك، هل زرت معارض فنية؟ ما المتاحف الهامة التى زرتها، ثم قبل كل شىء، من قابلت؟ من عرفت؟"

ثم وكأنه تذكر فجأة: "من قابلت؟"

أراد حمد أن يغير الموضوع قليلا، فأشار ناحية أمير برأسه وهو يقول باسما: "صاحبك هنا.."

توقفت عينا يوسف للحظة فى اتجاه تلك المائدة، ثم عاد إلى الضحك قائلا: "بالأمس كان يقول لماذا أشترى تليفزيون

arabworldbooks.com

ملون وأنا أراه أبيض وأسود. وقال لمارى يجاملها: حلوة قوى البلوزة الخضرا دى. دهشت مارى وهى تقول له: دى مش خضرا! لم تصدقنى قبلا عندما قلت لها أنه أعمى الألوان، لا يرى الألوان، لا يستطيع التفرقة بين الأخضر والأزرق، أو بين الأحمر والأسود، قالت له ساعتها فى دهشة حقيقية: إنت حقا لا ترى الألوان؟ قال لها وهو يبتسم ساخرا: 'مين قال كدة؟ أنا شايف البلوزة الزرقاء جيدا لكن أنا باضحك معاك!"

وعاد يوسف يقول لحمد: "وهكذا يتضح أن الأمر ينتهى بنا إلى عمى الألوان، ألا ترى الفارق؟ بين عاشق الألوان وأعمى الألوان؟"

كان ضحكه قد توقف تقريبا، قال فيما يشبه التوسل ويقرب من البكاء: "لماذا لا تريد أن تحدثنى عن لندن، أريد أن أسألك عن .."

تردد قليلا، قامت مارى واقفة وهى تقول: "أريد أن أتحدث مع غريب، سأجلس معه بعض الوقت، سعدت بمعرفتك."

أومأ لها حمد، ثم اتجه ببصره إلى حيث يجلس غريب، الذى كان ينظر إليه بابتسامة عريضة، أبدى له بوجهه تعبيرات الحيرة وعدم الفهم، ما هذا الحال الذى وصل إليه يوسف؟ أشار له غريب بالتريث والهدوء.

قال يوسف: "تعرف أننا نتحدث عن أميمة، مسكينة، تتحمل منى الكثير."

arabworldbooks.com

قال حمد: "بالفعل يا يوسف، إذا كنت ستتزوجها يجب أن تحاول أن تهتم بها أكثر، لا داعى لأن تشعرها بأنها مجرد تعويض."

رنت الكلمات فى أذنيه، ها هو يقول ليوسف ما كانت أميمة تقوله له عن روزا.

سكت يوسف قليلا، ثم قال بضيق: "لا أريد الآن أن أتحدث عن مارى، مارى معى وستكون معى دائما بعد ذلك، أريد أن أسألك عن أميمة، كيف حالها؟ ماذا تفعل؟ هل أنجبت؟"

ذهل حمد، ألا يعرف؟ كان يظن الخبر وصله، كان يظن أنه يعرف.

طارت عيناه إلى غريب فى منضدته البعيدة، كان غريب ومارى كلاهما ينظران إليه، أبدى بوجهه علامة استفهام، وأشارت مارى بيدها إشارة: "لا"

نظر إلى يوسف مرة أخرى بحيرة، لم يكن بهذه الأسئلة ينتظر منه إجابة، كان فى حالة سكر شديد، واستمر يقول مستعيدا ذكرياته: "هل تعرف؟ كان لابد أن أسافر معها وأتزوجها هناك زواجا مدنيا."

لابد أن هناك غيمة تخيم على منطقة ما من ذاكرته. فكر حمد أن يحاول تذكيره برفق، قال فى لهجة لوم رفيق: "يوسف، أنت تعرف أنها سافرت متزوجة، كيف كان يمكن أن تتزوجها؟"

قال وكأنه لا يسمعه: "كان يجب ذلك، هل تعرف؟ أغرب ما فى الأمر أن علاقتى بها لم تكن سوية، ربما كنا

arabworldbooks.com

نـــنفس عن توتراتنا من كل ما حولنا بإيذاء كل منا للآخر، لكن يا حمد، لم أكن أستطيع أن أستغنى عنها، كنا متكاملين بشكل لا مثيل له، كنا نتحاور بلا نهاية، كان يمكن أن نقضى الوقت فى مناقشـــة عنيفة لا نهاية لها، ولكن قبل أن تذهب، قبل أن تذهب وتتركنى، كنا نتصالح، هل تعرف؟ كانت تحب باخ، كانت تحب باخ وكنت أقول لها هكذا النساء يعجبهن باخ أكثر بينما الرجال يحـــبون بيتهوفـــن، كـــنا نتشـــاجر ماذا نسمع، كانت لا تحب السيمفونية الخامسة، تصور؟ السيمفونية الخامسة؟ .. تقول إنها طنانة؟ لا .. لا .. ليست طنانة، وإنما قوية، أنا أحب هذه القوة.

لكـــنها كانت تحب التاسعة والرباعيات الوترية أكثر. أعـــنى، أنـــا أيضا كنت أحب الرباعيات والسيمفونية التاسعة، ولكن الخامسة، الخامسة عبقرية.

ورغـــم ذلك، كنت أضع اسطوانات باخ بنفسى كل يوم من أجلها.

عندما كنا نلتقى فى ذلك الوقت، كانت دائما تدخل وأنا أضـــع بريندنبرج على البيك آب، كنت أدعوها 'مارش دخول أميمة'.

أحيانا تغيم الذاكرة، ويسود الغيام كل المشاهد، لا أذكر إلا مشـــهد الضـــرب هذا، الهمجية التى تظهر فى أخلاقنا عند اللـــزوم، أقصـــد عند اللا لزوم، الهمجية هى جزء من طبيعتنا أحيانا.

كنـــت أحـــبها. مـــا زلـــت أحـــبها، لكننا كنا نتشاجر ونتضارب، تصفعنى وأركلها، أحيانا كنت أجلس إلى نفسى فى

arabworldbooks.com

المساء بعد أن تذهب وأتساءل لماذا نفعل ذلك، لماذا هذه الحالة الهمجية البشعة. لكن هذا هو ما كان يحدث، ربما كنا ننتقم من الزمن الذى ظلمنا، الزمن الذى جعلنا نلتقى فى هذا العصر البشع، كان لابد أن نلتقى فى الزمن القديم، حينما كان الناس يتقبلون الاختلاف ببساطة.

هل تعرف؟ كان الناس فى أزمنة التخلف أكثر سماحة من اليوم، لم يكن يضير المصريين القدماء واليونانيين أن يتبادلوا عبادة بعض الآلهة، لم يكن ذلك مشكلة.

أما اليوم، فهناك مشاكل عظمى، ألا تذكر ما فعله الأوروبيون فى القرن الأول لدخولهم أمريكا؟ ألم يبيدو الهنود الحمر لأنهم كانوا مختلفين؟

لكننا ونحن نعلم ذلك كنا نتبادل الضرب والركل."

من أعلى لأسفل، الشجار من أعلى لأسفل وبالعكس.

كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذا؟

كيف تحس الآن وأنت تسمع خبر الموت؟

كانت تركب دراجة وتسير فى طريق آمنة، لكن السيارة كانت تعرف طريق الآمنين، وكانت تطلبهم.

يبدو المشهد هكذا:

الطريق خال، البيوت بعيدة، السماء زرقاء، فى الخلفية، عند أحد المفارق سور مدرسة، نصفه الأسفل من الحجارة، والأعلى من الكريتال الأخضر تتسلقه نباتات قليلة. لأنها فيما يبدو مدرسة جديدة، لا تلاميذ هناك، لأن اليوم هو آخر الأسبوع.

arabworldbooks.com

الدراجـــة تســـير بهـــدوء حاملة راكبتها، الفتاة النحيفة الجميلة فى ردائها الأبيض عارى الذراعين. يدفع الهواء بعض أطـــرافه السفلى فتطير إلى الخلف قليلا، وتبدو الكتلة المتحركة كلها بديعة التكوين.

الدراجة تقترب من المفرق. وفى الخلفية سور المدرسة تـــتراجع قضـــبانه الخضراء واحدا بعد الآخر، بنفس السرعة وعكس الاتجاه.

الصـــمت لا يقطعـــه إلا صوت خفيف لالتقاء عجلات الدراجة بالإسفلت.

يدخـــل صـــوت خافت لمحرك سيارة تقترب. الدراجة تســـير. الـــيدان تمســـكان بالمقود، والظهر فى انحناءة جميلة. شعرها يطير وحزام ثوبها الخفيف يطير أيضا.

صـــوت ســـير الدراجة يختفى تدريجيا بارتفاع صوت محرك السيارة تدريجيا أيضا. لا نرى السيارة أبدًا.

قطع

الدم يملأ المشهد.

لا أحد هناك، لا وجوه، لا وجود، لا صوت صراخ، لا شهود، الدم فقط على زجاج الكاميرا.

وأميمة تدخل مع مارشات باخ.

صـــوت الأرغن عجيب، دقات لا تعرف من أى سماء تأتى، الحب الهمجى مع الأرغن وباخ.

arabworldbooks.com

هل نلعب النرد؟

ألــق بالزهر، شيش بيش، لا ليست عينك وإنما حظى الأسود، ولماذا يكون الآن أبيض؟

ولماذا يكون الآن أبيض؟

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل التاسع

- ٤٣ -

فـتح الباب، وجدها أمامه، نظر إليها طويلا، لم تتغير إلا قلـيلا، الزمـن لم يترك الكثير من البصمات، لمحة حزن وإشراقة سلام، ذلك السلام الذى يبدو على وجوهنا عندما نكون قد عبرنا من الزمن قدرا، عرفنا به أن الحياة شئ آخر غير تلك الـتى كنا نحلم بها أيام الحيوية، بطنها استدارت وبرزت قليلا، هـذا أيضا فعل الزمن، لكنها هى، الابتسامة التى كثيرا ما نام يحـتويها تحـت جفنـيه، هـدأت قليلا، واكتسبت بعض الفهم والوداعـة، غطـاء الـرأس بدا غريبا، وربما كان هو الشىء الوحيد الذى يوحى بالكذب، هاجمته الأيام القديمة وكأنه لم يغب إلا يوما أو بعض يوم، ازدحمت فى رأسه الحكاية كلها، ترددت أصوات الأحياء والأموات فى رأسه معا.

لكـنها قاطعـته متسـائلة: "كيف حالك؟ حمدا لله على سلامتك."

تمتم وكأنه لا يزال يحلم: "أشكرك."

لم تتركه، بل استمرت فى الهجوم الهادئ: "هل والدتك هنا؟"

arabworldbooks.com

وكأنهـا كانـت ترقبه، من خلفه تماما ردت الحاجة: "طبعا، ادخلى يا ليلى."

انتـبه إلى أنه لا يزال ممسكا بالباب، تراجع يفسح لها ثـم اتجـه إلـى مقعده وجلس ينظر إليها. جلست تتحدث إلى والدته، هنا أيضا كانت تجلس، والدتها ووالدته يتبادلان أحاديث لا تنتهى رغم غرابتها الدائمة، عن الأزواج والأولاد وأصناف المـأكولات، يقف بعيداً عند باب الغرفة ويشير إليها أن تأتى، تشـيح برأسها وكأنها لا تراه، وعندما يتشجع قليلا يدخل قائلا أى شئ أو أى حجة معروفة ومكررة مثل: لماذا لا تأتين لنذاكر قليلا؟ أو: ما آخر درس اخذته فى العلوم؟

وتقول أمها: "قومى مع ابن عمك، فهو نبيه، وسيشرح لك الدرس الذى قلت أنك بحاجة إلى فهمه."

أنت أيضا كنت ترتبين لمثل هذا، أليس كذلك؟ ومع ذلك تتصنعين عدم الانتباه، هه؟

تطـير، يطيران، الحب الصغير بكل ما فيه من أشياء صغيرة، ما كان أحلى هذا، كنت أظن أن الزمن لم يترك آثارا كثيرة، لكنه ترك أكبر الأثر، أين نحن الآن من كل هذا؟

تتحدث إلى الحاجة الآن، ولا توجه إليه الحديث: "أنت تعرفيـن يـا خالتى كل ما يدور، ماذا أقول، أعدت عليه ذلك مرارا، ولا فائدة، بل يكرر أننى لا أريد إلا أن أضعه فى مكانه لأبعـده عن الحياة، ولكن كيف؟ حتى الصغير قالها له، محمد الصـغير فى ذاك النهار، قال له: لماذا تقوم وأنت تشكو دائما

arabworldbooks.com

مـــن القـــيام؟ وقـــال له أيضا: بابا، لا تجلس على المقعد لأنه يوجعـــك. أرأيـــت؟ وماذا بيدى؟ لو طلبت منه الراحة يتهمنى بأننى أريد له الموت، ولو سكت قال أننى لا أهتم، ولا أستطيع أن أطلب منه أن يقوم لعمل أو غيره وهو فى هذه الحال، ماذا أفعل؟"

ـــ لا تقلقى، أنا أعرف الحل، سنأخذه إلى خلوة سيدى حمد، وهناك سيشفى بالتأكيد.

لـــم يكـــن هـــذا صـــوت الحاجة، لكنه كان صوتا من الماضى، عندما مرض زوج خالته وهما طفلان، الخلوة هناك فوق الهضبة، وتذكر عندما ذهب مع أبيه إلى هناك، الحجرات علـــى جانـــبى الـــردهة الواسعة، لكل ولى من الأولياء مكان بـــالخلوة، هذه حجرة السيد البدوى، وهذه حجرة السيدة عائشة، وهذه لأم هاشم.

قالوا له: "ادخل إلى السيد البدوى، فهو قادر على شفاء ما بك."

الحضرة، والرجال يتمايلون يمينا وشمالا، فعل مثلهم. فـــى البداية كان يقلدهم، ثم نسى نفسه وانهمك فى الدور، حتى ظن أنه انفصل عن العالم حوله، كانت لعبة ممتعة.

أما الآن فقد كانت والدته تقول لها: "الصبر يابنتى، ربنا يشيل عنه."

لم يستطع أن يتحرك من مكانه، ولا استطاع أن يرفع عينـــيه عـــنها، حتى أحست بالحرج، قالت أخيرا بعد صمت: "طيب يا خالتى، الحمد لله على سلامة حمد."

arabworldbooks.com

قالت الحاجة باسمة: "ومستعجلة ليه؟"

"ما اقدرش أتأخر، ما انتى عارفة الحالة."

غرق فى تذكر الأيام الخوالى، عند سفح الجبل، فى تلك المغـارة المظلمة، كان يذهب فى الليالى التى تخلو من القمر، يلتقـيان بعـيدا عن الأعين. كان بينهما وعد بلقاء، وأفكار عن المسـتقبل، لكـن والدها لم يستطع ان يتركها بلا زواج خاصة عندما أحس بدنو أجله، وبالفعل، توفى بعد زواجها بقليل.

تـتداخل صورتها فى رأسه الآن مع صورة نعمة. لم يستطع أن يحدد فى وقت من الأوقات أى الفتاتين كان واقعا فى غـرامها حقا. كانت نعمة تشعل أحاسيسه، لكن ليلى هى التى كان يتمنى الزواج بها. ربما لمجرد أن ذلك كان هو الحلم الذى دفعه الأهل إليه. تصرفات أمه وأمها فى طفولتهما كانت توحى بذلك وتدفع إليه. ربما أن شعوره نحو ليلى لم يكن حبا حقيقيا، ولكـن نعمـة كانت تحرك مشاعره بالفعل. إلا أن الصورتين كانتا دائما تتداخلان.

وقف أمام البيت، كم من المرات انتظر لقاءها تحت هذا السـلم، رفع بصره إلى النافذة، ورآه جالسا هناك، هذا جارهم فـى البيت المجاور، ماذا يفعل فى بيتها؟ هل تزوج أمها رغم كل شىء؟

تذكر أيام كان يتسلل إلى بيتها، كانت يختبئ تحت السلم ويـراه يتسـلل صـاعدا فى الليل، وذات مرة فضحته زوجته وكانت مشاجرة كبيرة سمعها الجيران.

arabworldbooks.com

نظـر حوالـيه، كانـت الكافورتان قائمتين أمام بيت صديقه، دخل إليه، هناك يحس ببعض الراحة، جلس فى الغرفة ذات الجدار الدائرى، سأله، فعرف كل شىء.

كـانوا يرتبون للأمر شهورا طويلة. اتفقوا مع صاحب البيـت، هذا يأخذ شقتها، وذاك يأخذ الشقة التى يتركها. قسموا الـتركة جـيدا، صاحب البيت قال: "لا يهمنى، المهم أن ترحل بسوء سمعتها."

لـم يعترض أحد من أهل الحتة، هذا الجار بالذات كان له قريب فى الشرطة، اتفقوا معه أيضا. كانت المرأة قد شاخت، والبنـت تفتحـت ولكنها تظاهرت بالتدين، تلبس الحجاب، لكن أحدا لم يصدق أن سلوكها "قويم". أو فى الحقيقة أن أحدا لم يكن يريد سلوكها قويما، لقد تفتحت وأصبحت جميلة كأمها، فلماذا لا تكون لهم كما كانت أمها؟

لـم يكـن سـلوكها قويما. ظلت ترسب فى المدرسة الـثانوية، وأصـابتها حالة غريبة تشبه الصرع. كانت تقع فى المدرسـة متشنجة، قالوا لبسها جان، حاولت أمها علاجها بكل الطرق، لكن لبسها الجان.

ثم أخذوها إلى "خبير" فى طرد الجان.

ضربها، قال إنه يضربه هو. الجان الذى يسكنها.

كان يحادث الجان الساكن فيها، يزعق فيه، يشتمه، يرد عليه بعنف. ولما امتنع عليه لطمها على وجهها، لطمها مرات عديـدة، لـم يخـرج، جعـل يضربها بكفه على كل مكان فى

arabworldbooks.com

جسـدها. اسـتهزأ بـه الجـان، رغم صرخات الفتاة. أمرهم بالخروج من الغرفة "لأنه يستمد من وجودهم قوة".

خرجت الأم والجدة والجارة، قرر الشيخ الخبير بالجان أن يـبطش بـه بكل الطرق الممكنة حتى يخرجه من جسدها، جعـل يضربها، حتى يخرج الجان من جسدها، جعل يضربه، لكـن الجان كان عنيدا، ضربها بكرباج، لكن الجان كان عنيدا، اشتد فى ضربها.

أخـيرا، خرج إليهم قائلا: "أخيرا هزمته، هرب الجبان وتـركها بلا سوء. ولن يعود إليها أبدا فقد أذقته الويل وهددته بآيات الله المغلظة إن عاد. لكنها فى حالة إعياء شديد، خذوها."

دخلوا لأخذها، كانت غائبة عن الوعى، نظرت أمها فى رعب إليها، ماذا حدث؟

قـال الشـيخ: "إنهـا صدمة خروج الجان، لا تهتموا، ستكون بخير."

أخذوها إلى البيت.

فى اليوم التالى لم تكن قد أفاقت.

فى المساء كانت الأم تصرخ.

جاء الجيران يتساءلون. كانت الأم فزعة.

فى الصباح كانت قد ماتت.

وبعد أيام قليلة نفذوا الخطة. جاءوا بسيارة نقل صغيرة ودقـوا علـيها الباب، فتحت، فدخلوا، قال اللواء السابق الذى يسكن فى البيت المقابل ويطلق لحيته ويتزعم الحملة.

arabworldbooks.com

"هيا، لمى هدومك انت وامك"!

"ماذا؟"

"انت سمعت يا روح امك، لموا هدومكوا والرجالة ها ينـــزلوا العفش ع العربية"

"طب ليه؟"

"انـــت عارفة ليه ... بننظف الحتة ... لا نريد أمثالك هنا ... يكفى ما أصابنا منك ومن سوء سمعتك!"

ضحكت ساخرة: "الآن؟ ... كلكم كنتم زبائنى فى يوم من الأيام ... تحب أن أقول لك؟"

نزلت يده على وجهها فتراجعت.

"اخرسى!!"

قالـــت غاضـــبة: "لا يمكـــنكم أن تفعلـــوا ذلك، سأبلغ البوليس!"

قـــال وهو يدفعها بعيدا عن الباب: "اطلبى البوليس .. هيا يا رجال .. شوفوا شغلكم!"

كانوا ينـــزلون الأثاث عندما جاءت الشرطة.

وقف اللواء السابق مع الضابط قليلا، ثم انضم العساكر الذين معه إلى الرجال يساعدونهم فى إنزال الأثاث الذى لم يكن كثـــيرا بأيـــة حـــال. وبعـــد قليل رحلت السيارة تحمل الأثاث والمرأتين.

وأخذ كل واحد الشقة التى يريدها.

arabworldbooks.com

وذلك الذى كان يتسلل إلى بيتها، أخذ شقتها، سكن فيها هو وامرأته التى فضحته ذات يوم لأنه يتسلل إليها.

أدعوك ولا تأتى.

أدعوك، فماذا افعل أكثر من ذلك؟ اليوم يمر، اللحظات تضيع ولا طائل، هل ينتظر الطائر الغريب على غصن أعوج كثيرا؟ العودة إلى الأغصان عند الغروب تثير فى قلبى الحنين. طيور الحقل البيضاء تحتفل بعودة كل واحد منها بضجة عظيمة. أدعوك، فلا تنظر فى جدران لا تحمل شيئا، لا تغلق نافذة تفتح عبر الأرض الخضراء الممتدة، أو عبر الأرض الصفراء الممتدة، أو عبر سماء زرقاء بلا آخر، أو يعبرها الكروان الصائح فى الليل، لا تنظر نحو الجدران القائمة بلا معنى، اعبرها، شق طريقا يفتح بابا فيها، شق طريقا نحوى.

هل تأتى؟

- ٤٤ -

كنا مجموعة متباينة من الأصدقاء، جلسنا فى تلك الليلة نتجاذب الحديث، كل تحدث عن مشروع المستقبل.

كان هناك ذلك القبطى، كان أسمر نحيفا قليل الجسم، لماذا كل هؤلاء أصحاب الجسد الواهن يحملون هذا الكم من الحساسية والرهافة؟ تحدث عن المستقبل، قائلا:

arabworldbooks.com

"المـوت هـو ما أنتظر، وأتمنى، أحمل السيانور فى جيـبى، أتعرفون كيف أتيت به؟ طلبته من بائع الألوان، ولأنه يعرفنى كفنان، لم يشك بالأمر، ظن أننى أرغب فى خلط بعض الألـوان بنفسـى، أحملـه رغبة فى الموت، وسأفعل، المسألة بحاجة فقط لبعض الوقت.

منذ عدة ليال، قررت أن أجربه لأعرف تأثيره، قررت أن أجربه على كلب من تلك الكلاب الضالة، عندما نزلت عند المريوطـية، كانت الكلاب الضالة فى الشارع المجاور للترعة والـذى تظلـله مـن الجهتين أشجار الكافور القديمة العملاقة، تستقبلنى كل ليلة عند مقدمى، نمت صداقة بينى وبينها، أحدها، صـديقى جدا، كان يوصلنى حتى الجسر القائم على المريوطية عند شارع فيصل وعندما أعبر الكوبرى مواصلا طريقى نحو كرداسة يتركنى عائدا، دائما أحمل له بقايا طعامى التى أحملها معـى من المطعم أو من منازل الأصدقاء، فكما تعلمون بيتى خـال دائمـا مـن الطعـام، مـنذ رحيل أميمة لا يُصنع فيه طعـامٌ، وأحـيانا لا أتـناول العشـاء فى البلد فآخذه معى إلى هناك.

مـا عليـنا، فى تلك الليلة قررت أن أجرب السيانور، وضـعته فى ساندويتش كبدة كنت قد اشتريته لعشائى، وعندما تبعنى الكلب ككل ليلة إلى الجسر؛ قدمته له، لكن الكلب تشممه وانصرف.

نظر لى بعينيه الغريبتين نظرة لوم طويلة، وانصرف.

arabworldbooks.com

كنت أريده أن يموت قبلى لكنه لم يرغب بذلك.

عـرف الحـيوان الرائحة السامة ورفض الطعام حتى وهـو جـائع، وهكذا تمسك بالحياة. غبى، لم يعرف أننى كنت أريـد أن أريحه. تمسك بالحياة، رغم أن الحياة صعبة، شديدة الصـعوبة فى الحقيقة، أصعب من أن أقدر عليها، لا أظن أننى سأتحملها طويلا."

- ٤٥ -

فـى المعرض كانت لوحاته الكبيرة تصورا شخوصا مشـبوحة، تحولـت إلى ما يشبه جلود الحيوانات المعلقة على الجـدران، كانت معتمة كما فى ليالى الشتاء المغيمة، تسودها الأزرقات والبنيات فى تدرج لونى حزين.

وكانـت اللوحات الأخرى لرفيقته التى تصاحبه تمتلئ بـألوان العـنف، الأحمـر المـندفع كالدم المنبثق من الجراح الطازجة، الأصفر والأبيض خلفية دائمة عندها.

أيهما كان يحتل الآخر؟

انطلقـوا يسـيرون فى شوارع القاهرة فى ليلة معتمة، لكن ليل القاهرة كان دائما مضيئا.

أغلـب المحـال أغلقـت أبوابها، لكن لا تزال بعض المقـاهى ومحال البقالة ساهرة، والسيارات لا ينقطع مرورها، والأرصفة لا تخلو من المارة حتى آخر الليل.

وجعل كل واحد يروى.

arabworldbooks.com

كانت تلك النهاية المحتومة، حكت أنهما كانا يتشاجران، وقال لها إنه لا يحتمل كل هذا العنف فى الحياة، وإنه سينتحر.

قالـــت له: "هذا كلام تقوله لكى تكسب أرضا أمام كل من يختلف معك."

قال: "بل هو حقيقة، الحقيقة الوحيدة هى الموت!"

قالت له: "إنما أنت تمثل دورا ليس لك، ولا تملك سوى الادعاء، ما أنت سوى دعى!!"

قال لها: "بل سأفعل وسترين يوما أننى سأفعل."

قالـــت: "وما الذى يمنعك، كل هذا ما هو إلا ادعاءات جوفاء."

قال لها: "لا تدفعينى إلى ذلك!"

قالـــت: "تقـــول أنـــنى أدفعك وتقول أنك ستفعل لأنها الحقـــيقة الوحيدة، فما الأمر؟ وما هذا التخبط الذى لا نهاية له، فلتنه هذه الحكاية، لا أريد أن أسمع عنها لأنك لست أهلا لها."

قال: "قلت لك لا تدفعينى!"

قالت: "أعيش فى رعب دائم، هذا الذى تحمله فى جيبك وتهـــدد به كل إنسان، ما الأمر؟ ألا تستطيع أن تفعل الأمر فى هـــدوء وبساطة؟ ألا يمكنك أن تريحنا من هذا التهديد؟ الآن .. إمـــا أن تلقـــى به فى سلة المهملات أو تتناوله وتنهى كل هذا العبث!"

arabworldbooks.com

كانت تلك هى اللحظة الحاسمة بالنسبة له، أخرج ورقة السيانور من جيبه، نظرت ساخرة، قربها من فمه، ضحكت قائلة: "لماذا تصر على التأثير على؟ كل هذه الحركات التمثيلية لا تؤثر فىَّ قدر شعرة!"

تناول السيانور بشفتيه، صرخت: "مجنون!!"

صرخت: "مجنون!"

- ٤٧ -

توقف حمد أمام باب البيت الخارجى، ونظر حواليه.

لأول مرة يلاحظ أن سور البيت قد تغير.

لا، ليس لأول مرة يلاحظ ذلك، لكنه لأول مرة ينظر إليه. عادته، يرى الأشياء ولا يراها.

السور القديم الواطئ من الشجيرات الصغيرة المتشابكة لم يعد موجودا، وامتد مكانه سور حجرى عالٍ لا يُظهر من البيت إلا أعلاه. متى حدث ذلك؟ وكم مرة جاء فى رحلاته القصيرة من لندن، وكان هذا السور الحجرى الكبير موجودا ولم ينتبه إلى التغير.

وعندما دخل، لاحظ بعض الأتربة القاتمة فى أماكن مختلفة تشير إلى مدخل البدروم. ابتسم ساخرا. ربما صدق خالد الحواديت القديمة عن الكنز المدفون. لا يفكر خالد إلا فى

arabworldbooks.com

المـــال. وربما أن هناك شيئا فى البدروم بالفعل، ألا يقولون أن النزلة كلها مبنية على آثار مدفونة؟

جلـــس تحـــت الصفصـــافة الكبيرة العجوز، وقد مدت أفـــرعها تحنو عليه كما كانت تفعل دائما. وأحس براحة عميقة وهـــدوء. نســـى للحظـــات، رحلة التعب الطويلة فى الغربة، والمشاحنات الأخيرة التى أصبحت شبه دائمة بينه وبين روزا، والمشـــاحنات الأخرى الأكثر حدة بينه وبين خالد. ونسى آلام ومصـــاعب السنوات التى كان يحس بها أطول مما ينبغى. عاد إلـــى جلسته كطفل تحت هذه الشجرة، إلى جوار أبيه، والرجال يضعون إناء الشاى القديم الأسود فوق الجمر فى الحفرة. وهو، بصبر شديد، ينتظر دور الشاى بالليمون.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل العاشر

- ٤٨ -

سار حمد متجها إلى الهضبة.

للمرة الأولى منذ خمس سنوات يسير نحو الهضبة. منذ جاء وهو ينظر نحو الأهرام من الفرجات الظاهرة بين بيوت النزلة التى كثرت وارتفعت طوابق الكثير منها، كان يحب مشهد الهرم الأكبر من خلف مشهد الأشجار ومئذنة الجامع الكائن بالقرب من بيتهم.

كان الطريق الخلفى إلى الهضبة قد أغلق منذ بضعة سنوات، كما أن الهرم نفسه أحيط بجدار وأبواب للدخول ولم يعد السهر تحت سفح الهرم ممكنا كما فى الماضى، كان يريد أن يزور الهرم ويجلس فى ظله لحظات قلائل، تلك الزيارة التى كان معتادا عليها فى لحظات معينة من حياته. مثل اليوم وقد عاد ليرى والده قبل أن يموت، ولكنه لم يصل فى الوقت المناسب، كان فى حالة غريبة من الشجن. جلس فى الجانب الشمالى للهرم، ينظر إلى الأفق البعيد الذى تقطعه التلال الرملية فوق الهضبة.

بعد لحظات قام وسار فى جولته المعتادة القديمة، ونزل إلى أبى الهول، تذكر لحظتها عندما كان يذهب مع والدته ونساء

arabworldbooks.com

أخـــريات إلى خلوة سيدى حمد السمان الذى سمى باسمه، ولم يكن قد ذهب ناحيتها منذ كان طفلا صغيرا.

نـــزل نحـــو أبو الهول، ولف أمامه من ناحية المسرح المفتوح الكائن هناك، كان أبو الهول ملتفا بسور جديد يحيط به ويجعـــل رؤيـــته كاملا على أرض الصحراء كما فى الماضى صـــعبة. ترك أبو الهول وسار نحو الخلوة التى يذكر فقط أنها كانت هناك.

تعدى المعبد الصغير، أو بقايا المعبد الصغير خلف أبو الهـــول، وسار فوق الرمال، من بعيد تبدى له بابين من أبواب المقابـــر، اقترب منهما، كان الحارس الجالس أمامهما فى حالة مـــن الخمول، فلا يبدو أن أحدا يهتم بهما كمقبرتين لا تحملان الكثـــير مـــن المشاهد الجذابة للسائحين، لا رسوم كثيرة على الجدران الخارجية، وقف حمد ينظر حواليه، كان واثقا أنه كان يأتى فى هذا الاتجاه مع والدته صغيرا لزيارة الخلوة.

دخل إلى المقبرة الأولى، إحدى مقابر المهندسين الذين كانوا يعملون فى الأهرامات، اليوم يستطيع أن يقرأ كل الكلمات المرصوصـــة على الجدران القديمة، كانت هناك قوائم لبعض أســـماء العامليـــن فى الأهرامات. هؤلاء الغرباء الذين تركوا ديارهم وقراهم فى أوقات الفيضان، وارتحلوا فى البلاد ليعملوا فـــى بناء تلك الأبنية الكبيرة، بعيدا عن أسرهم وأراضيهم التى أغرقـــتها مياه الفيضان. ورغم أنه من هنا، من النزلة، إلا أنه يحـــس الآن نفس الغربة. ورغم عودته من الغربة الحقيقية فى

arabworldbooks.com

البلاد، شعر بأنه لا يزال أمامه رحيل، لا يزال أمامه طريق بعيد قبل أن يستقر فى مكان. وأين يكون هذا المكان؟ اليوم، وهو يعود إلى بلدته، يحس بالغربة، فأين سوف يشعر بالاستقرار؟

غرباء؟ من هو الغريب؟ هو ابن هذا المكان، وهم أبناء هذه البلاد، لكن هكذا كان المصريون دائما. ما أن يعبر أحدهم حدود قريته حتى يحس بالغربة.

غرباء؟ هو الغريب اليوم، وهو فى بلدته نفسها، قريته نفسها، كطائر سمان عاد بعد رحلة الشتاء، ولم يجد عشه القديم. اليوم يقول له خالد: "متى ترحل؟ ألن تذهب إلى غربتك مرة أخرى؟"

أحس بالتعب، ورغب بالتوقف عن التفكير. ربما لن يكون له استقرار إلا فى المقام الأخير، فليترك تدبير ذلك لله، وللزمن.

وفكر أن هؤلاء الغرباء الذين كتبت أسماؤهم هم فى الواقع جزء من التاريخ، جزء لا تسرده كتب التاريخ المعتمدة، التى لا تكتب إلا تاريخ السلطة دائما. وفى ذلك الوقت البعيد، لم يجد بعض المهندسين سوى فكرة أن يكتبوا أسماء العمال الذين عملوا معهم كنوع من التسجيل الذى لا يسجله الملوك والعظماء. هؤلاء العمال لكل منهم قصة وحياة، لكل منهم تاريخ لا سبيل لمعرفته. لكن يمكنه اليوم أن يكتب هذه الأسماء ويقوم بمسح لمقابر المنطقة وكتابة مسرد كامل بأسمائهم، وأسماء

arabworldbooks.com

مجموعـــاتهم، هـــذه المجموعـــة كان اسمها طريفا جدا، "شلة الســـكارى"، ضـــحك حمد فى نفسه، وأحس بسعادة وهو اليوم يستطيع أن يفهم المكتوب على هذه الجدران التى كانت جدرانا صامتة من قبل، ها هى الآن تبوح له بأسرارها. طاف بها قليلا ثم اتجه إلى المقبرة الأخرى.

قرأ على الباب: مقبرة المهندس " "

كـــان الـــباب مغلقا، قال له الحارس وهو يلاحقه: "هل تريد مشاهدة المقبرة يا أستاذ؟"

كـــان فـــيما مضـــى معروفا لمعظم العاملين والخرتية وأصـــحاب الخـــيول والحيوانات التى يأتون بها لتأجيرها لمن يمكنهم من السياح، ما أعجب هذا، أكثر من خمسة عشر عاما فـــى غربة دائمة، الصف، الأقصر، رحلات مكوكية إلى المنيا والواحات، ثم الأقصر، وأخيرا لندن وباريس، والقاهرة. كانت لحظـــات العودة والإقامة فى النزلة وسط رحلات التجوال تبدو باهتة مهما طالت مدتها، ما كان يأتى إلا فى رحلات قصيرة لا يشاهد فيها شيئا. لا يشاهد، الحقيقة أنه لا ينظر كما ينبغى فيما يبدو. اليوم يعود ليجد أحد الخرتية يحاول اصطياده كأى سائح، وعندما تأمل حواليه اكتشف أن السواح قليلون فى الحقيقة، ولم يكن فى المنطقة منذ دخلها فى الصباح إلا فوج واحد غريب، لا يمكـــنك أن تتعرف بسهولة على جنسيتهم، قال أحد الحراس له وهو يزور أبو الهول من الداخل: "لم يعد يأتى "سواهم"."

تساءل حمد مستغربا: "من تقصد؟"

arabworldbooks.com

أومـــأ الحـــارس برأسه، وبدأ حمد يفهم. وعاد يسأله: "وهل تعرفهم؟"

هز الحارس كتفيه: "واضحون مثل الشمس"

"وهل تفهم لغتهم؟"

"لغتهم؟ أغلبهم يتحدث العربية بطلاقة، بلهجة شامية فى الغالـــب، أو يـــتحدثون لغات أخرى نعرفها، ألمانية، إنجليزية، فرنسية .. إلى آخره"

– ٤٩ –

ثم عندما كنت أحاول المرور من الطريق الذى اعتدت المرور منه لسنوات طويلة كان ذلك مستحيلا ...

الشـــارع مقفـــل مدجج بالجنود المقيمين خلف السواتر الجداريـــة يحملـــون الأســـلحة الآلـــية المحلاة بالسوانكى. من يهددون؟ ومن يحمون؟

الســـيارة المصـــفحة تقف على مدخل الجسر الذى أقيم عليه ساتر للجنود المسلحين بالأسلحة الضخمة.

حـــتى الرصـــيف على الجسر لا يمكنك السير عليه، رصـــيف فى بلادى لا أستطيع السير فيه. اليوم أعود ولكن لا أجد شيئا كما كان.

arabworldbooks.com

وكـــان هذا الحارس الآخر لا يزال يسأله: "هنا مقبرة ستفتح قريبا، انتهى ترميمها ولكن لم يتم افتتاحها رسميا بعد، ألا ترغب فى رؤيتها؟"

قال له: "نعم!"

فى الحقيقة لم يكن قد جاء لمشاهدة المقابر فى الأصل، لكـــنه أحس بعد أن رأى مجموعة "شلة السكارى" بأنه يريد أن يرى الكثير.

فتح الحارس الباب، ودخل حمد.

لـــم يكـــن يتوقع أن يجد نفسه داخل خلوة سيدى حمد نفسها.

يتذكر تفاصيلها منذ الطفولة، يتذكر "حجرات" الأولياء، نظـــر إلى الجدار الخالى خلفه، كشط يملأ الجدار، ورسم ساذج للقـــبْلَة عليه، قال الحارس: "كان هنا أحد الهاربين من السلطة، ولَكـــنه كـــان شخصا جاهلا لا يعرف قيمة هذه الأشياء، فهدم التماثيل وكشط الرسوم، ورسم مكانها هذه القبلة للصلاة!"

نظر حمد إليه: "هارب؟"

قـــال الرجل: "نعم، كان هاربا من الشرطة، وظنه أهل المنطقة وليا من أولياء الله!"

قال حمد باسما: "من أين أنت؟"

قال الحارس: "من قنا!"

arabworldbooks.com

كـــاد حمد يضحك، لكنه كان ممتلئا بالانفعال، لم يكن يعـــرف عندما كان يأتى فى طفولته أنه يدخل إلى مقبرة قديمة، كانت هذه هى الخلوة التى اختبأ بها الشيخ حمد السمان، وكانت مـــزار أهـــل البلد ربما لما يقرب من مائتى عام، أحس بسعادة بالغـــة وهو ينزل إلى غرفة الدفن، هو يعرف الآن أنها غرفة الدفن، لكنها مليئة بآثار الدخان السوداء على الجدران والسقف، آثـــار الـــنار الـــتى كان يوقدها سيدى حمد فى ليالى الصحراء الـــباردة، ربما ليتدفأ عليها، وربما ليصنع شيئا ساخنا من طعام أو شراب، شاى، لابد أنه الشاى الذى التصق بالمصريين ودخل فـــى تقالـــيد حياتهم حتى يبدو وكأنهم كانوا يعرفونه منذ القدم. الشـــاى الـــذى يشـــربونه بعد الجبن القديم والبصل ليضع فى معداتهم خلطة سحرية تجعلهم يقاومون شرور الحياة.

قـــال حمد للحارس: "هذه خلوة سيدى حمد السمان، أنا من هنا، وهذا المكان يهم أبناء النزلة كثيرا"

احمـــر وجـــه الحـــارس قليلا، قال: "إننى أعرف أنها كذلك، ويأتى الكثيرون لزيارتها يوم الجمعة من كل أسبوع."

تساءل حمد: "أما زال هناك من يأتى لزيارتها؟"

قـــال الحـــارس: "نعم، رغم أن هذا ممنوع، فقد كانت المقـــبرة آيلة للسقوط، لكن ترميمها انتهى الآن، وسوف تفتتح للزيارة قريبا!"

كـــم مقبرة توشك أن تسقط، وكم مقبرة بحاجة للترميم، مسكين خميس، حتى اليوم لا يزال منتظرا ترميم مقبرته.

arabworldbooks.com

لـــم يعرف حمد متى بالضبط ساءت العلاقة بينه وبين أخـــيه إلـــى هذا الحد، إلى حد الشجار المستمر بينهما. إلا أن مـــوت والده ربما كان له أثر كبير فى ذلك. بدأ حمد يتذكر أن والده كان دائما يدفعه إلى الرحيل، رغم أن روزا كان لها رأى مختلف، كانت ترى أن والده كان يريد لكل منهما دورا مختلفا حتى لا ينتهى بهما الحال إلى التنافس، ونبهته ذات مرة إلى أن أخـــيه يغار من دوره الذى يسنده إليه الوالد والذى يتطلب منه ســـفرا كثيرا. لكنه لم يصدقها، وكيف يصدقها وقد كانت البداية وهـــو فى الصف الأول الثانوى، عندما نشأت أزمة بينه وبين أخـــيه ورفـــض لأول مرة أن يعتذر له، فى اليوم التالى أرسله والده بصحبة عم فرحات إلى سقارة حيث قضى معه ثلاثة أيام، يذهـــبان فى الصباح إلى الجبل يتفرجان على أشياء غريبة، أو هكذا بدت له غريبة، وفى المساء يذهب معه إلى بيته فى ميت رهيـــنة، كانت زوجة فرحات طيبة وتعاملت مع حمد كضيف عزيز، وكان له أبناء فى مثل عمره، لكنه لم يشعر بهذه الرحلة إلا كعقاب من والده، وربما كانت هذه هى البداية. كلما تأزمت الأمـــور بيـــنه وبين أخيه كان الحاج نبيل يجد رحلة ما لإبعاد حمد.

أخذ حمد يستعيد شريط حياته، الذى لم يكن طويلا على أيـــة حال، فهو اليوم لم يتجاوز الأربعين إلا قليلا. لكنه قضى

arabworldbooks.com

الوقت فى رحلات مستمرة، ودراسة مستمرة. بدأ بالتاريخ، ومنه إلى المصريات، الآثار، حتى الترميم درسه فى لندن وفى باريس، بعد أن كان قد تعلم منه شيئا لا بأس به على يد عم على فى الأقصر. كان يقوم بتهريب قطع من الآثار أحيانا لم يكن حتى يراها، وأحيانا لم يكن يعرف حتى أنها معه.

وبعد كل هذه الأعوام الحافلة ها هو يعود ليجلس إلى جوار أمه وأخيه. بلا عمل، سوى ما يجد نفسه مندفعا إلى فعله بنفسه. وسوى الجلسات المسائية التى عاد إليها أمام محل السياحة القديم الذى تحول إلى ما يشبه الخرابة، مع عبده الفخرانى ومجدى، وأحيانا كان غريب أيضا فى زياراته للمنطقة التى بلا ترتيب، ليسهر معهم. ورغم ذلك كان حمد يشعر بأنه لا يرغب فى الرحيل مرة أخرى.

حكاياه التى كان يقصها على مجدى وباقى الرفقة فى هذه الجلسات، وفى رسائله لمجدى طوال سنوات الغربة، حكاياته عن حياته القديمة والحاضرة، لم تنقطع. كان مجدى قد تعدى الخمسين وإن بدا أكبر من ذلك، وأصبح أقل قلقا بعد أن تزوج ثلاثة من أبنائه، وبعد أن طلق زوجته الثالثة، لم تكن النساء فيما يبدو يطقن الحياة معه كثيرا. مما يجعلنا نتساءل عن مدى مقدرة زوجته الأولى وأم أولاده التى أحبته بصدق وسذاجة بريئة، نورا، أعنى مدى مقدرتها رغم وهنها البادى الذى أودى بحياتها بمجرد إنجاب طفلها الرابع.

arabworldbooks.com

كان توتر العلاقة يتصاعد بين حمد وخالد يوما بعد يوم منذ عودته، ولم يكن حمد يجد مبررا كبيرا لكل هذا التوتر. لكنه كان يشعر أن هناك أشياء غامضة، ثورات لا يفهم لها سببا، أحيانا كان يزداد شكه فى إخفاء بعض الحقائق عنه. كان قد تبين بعض الأمور، لكن بعضها الآخر ظل مستغلقا. اختفت "الفازة المرمر"، وبالطبع لم يلحظ ذلك مباشرة. كانت المحلات تدار بشكل غير مفهوم، وعندما حاول أن يسأل، أبعد خالد الأمر بالحديث فى أمور أخرى وإثارة مشاجرات بعيدة لا داعى لها. وما كان يمكن إلا أن يرده بعنف ليحاول أن يعيد إليه الانتباه والتعقل، أو يستعيد هو نفسه وجوده داخل العائلة.

كان حمد يحكى لمجدى هذه الأشياء بأسلوب ملئ بالسخرية والمرارة. وربما كانت هذه الأحاديث تعاود مجدى بين الحين والحين وهو يتأمل القناع فى غرفته فى ضوء الفجر الضعيف وهو يتهيأ للنوم. يستعيدها، ويحاورها، صورة حمد تتحدث إليه، وصوته يرن فى أذنه، والحفرتان فى مكان الحدقتين توحيان إليه بالخواء، وإن كان خواء عميقا.

الخواء العميق، فكرة قفزت إلى ذهنه فابتسم ساخرا، لكن العينين المحفورتين كانتا توحيان بما هو أبعد من ذلك. وذلك الصدع فى الخشب المصنوع منه القناع أيضا كان يوحى بأشياء، أحيانا لم يكن قادرا على تسميتها.

arabworldbooks.com

"ضع هذا مكانه."

"أحتاج هذا المبلغ."

كان هذا خالد، عندما دخل على حمد وهو يفتح الخزينة فى غرفة والدهما، كان هذا دأبه منذ عودته، وكان هذا بتصريح من الحاج نبيل الذى قال له يوما: "لو احتجت إلى أى شىء، فخذه، هذه أموالك وأموال أخوتك، لا أخفى شيئا عنكم، فقط عليك دائما أن تفكر فيهم عندما تأخذ شيئا، أعنى أن تضعهم فى اعتبارك."

لكن موت الحاج نبيل غير من الأمر، كان حمد يقول: "إننى أتصرف من نفس المنطلق"

لكن خالد كان يتحدث بغضب شديد: "أنت أخذت ما يخصك."

كان هذا آخر ما ينتظره حمد، ولهذا فقد تحدث بخشونة ذاكرا ما كان يهرب من ذكره: "لم آخذ نصيبى من بيع الأقنعة."

لكن خالد لم يكن ليتردد فى الإجابة فورا: "الأقنعة ليست جزءا من الميراث، إنها تخصنى."

"كانت تخص والدنا، ولذلك هى من الميراث."

كانت هذه بالفعل لحظة المواجهة: "الميراث هو ما كتبه أبى لك ولى، هذه الأقنعة كانت عملا خاصا بينى وبينه."

"ما دامت ملكه فهى من الميراث."

arabworldbooks.com

"ليست من الميراث، هى عمل بينى وبينه، وهى ملكى الآن."

"أعماله كلها ميراث لكلينا، ولأختنا أيضا، وسوف آخذ هذا لى ولها."

قـــال هذا وهو يضع النقود فى جيبه، لكن خالد أسرع يمسك بيده: "ضع ما بيدك وارجع."

دفعـــه حمد بغيظ: "لن أرجع، حقى لا يمكننى الرجوع عنه."

أمسك به من طرف الجاكيت: "هذا ليس حقا، الحق أنه ليس لك فى هذا الأمر."

دفـــع يده مرة أخرى: "بل لى كما لك، ويكفى ما نهبته من أشياء لم نحسبها. يكفى أن جسد أبانا كان لا يزال فى فراشه لـــم يدفـــن وكنـــت أنـــت تبيع الفازة، وأنت تعلم أننى أنا التى أحضرتها، بعت الفازة المرمرية التى أحببناها جميعا، ولم أكن أرغب فى بيعها، بعت الفازة ولم تعط أحدنا حقه، يكفى هذا، لقد سكت لأننى لم أرغب وقتها أن أدنس حرمة الموت، لكنك أنت دنستها، ولم يهمك جسده المسجى فى الدار لم يصل إلى مرقده بعد."

"تقول هذا لتتهمنى بتدنيس حرمة والدنا، وأنت تعلم أن هذا غير صحيح، وأن هذه الفازة سرقت أثناء الجنازة وليس لى يد فى ذلك."

arabworldbooks.com

سـكت حمد قليلا، حتى تهدأ نفسه، ثم قال: "دعك من هذا، ماذا يوجد فى البدروم؟"

"بدروم؟ أى بدروم؟"

"البدروم، ليس عندنا سوى بدروم واحد فى الحقيقة."

"ماذا تعنى؟"

"سؤالى واضح جدا، ماذا فى البدروم؟"

"لا شىء فى البدروم."

"بـل هناك شىء تخفيه هناك، وأنا أعرفه، لقد توصلت إلـى معرفته، أنت تحفر هناك، وحدك، أو مع أحد من عمالك المخلصين، ولعلمك، لن يبقى هذا طى الكتمان طويلا، فأولا هذا الـبدروم فـى البيت الذى نسكنه جميعا، وما فيه هو لنا جميعا أيضا، وأما لو كان أثرا ذا قيمة، فهو ملك للبلاد، وعليك الإبلاغ عنه."

"الإبـلاغ؟ هـل جننـت؟ الإبلاغ معناه ألا نأخذ شيئا، ومعناه أيضا أن نطرد من بيتنا."

"تطرد من بيتنا؟"

"طـبعا، إذا وضعت الحكومة يدها على أثر تحت أحد البيوت، ماذا يحل بساكنى المنـزل يا غبى؟ ألا تعرف؟ دعنى أقول لك .. أو .. الأفضل ألا تهتم، ابق فى دراساتك وأبحاثك."

كـان شيئا محيرا، هناك ما يخبئه خالد، وكان ما يثير حمد هو أن هذا الشىء لا بد أن يشتركا فيه سويا، وفى الحقيقة لـم يكـن يتمنى أن يجد شيئا شديد الأهمية، والحقيقة أيضا أنه

arabworldbooks.com

بـــالفعل ما كان يريد سوى أن يهتم بدراساته وأبحاثه، غير أن الأمـــر كـــان لا يخرج عن نطاق دراساته وأبحاثه، وكانت هنا تكمن المعضلة.

قال لأخيه: "أريد أن أعرف ماذا هناك؟"

قـــال خالد: "أنت تعرف جيدا أن كل ما هنالك هو ملك لى ولك، كل شىء هو بيننا، يجب أن تبقى مثل هذه الأمور فى نطاق السرية التامة."

"إذن كـــل شىء لى ولك، ها أنت تقولها بنفسك، أم هو نوع من التلاعب حتى تظفر بما تريد؟"

مـــرت لحظـــات صمت، ثم قال خالد بهدوء: "اسمع يا حمد، لا داعى لفتح بئر لن نعرف قرارا لها."

أكـــره الأســـرار، أكـــره الأسرار، الأسرار هى مورد البلوى، الأسرار قتلت أبى، لماذا الأسرار دائما.

أكـــره الأسرار، ماذا أفعل هنا إلى جوار من يعيشون حياتهم فى الأسرار، ماذا تفعل أمى وهى تخرج مع جاراتها إلى الخلـــوة، زيـــارة الســـمان، وزيارة أولياء الله الصالحين كلهم، طقوس لا تنتهى.

انتظر حتى نام الجميع، خرج من غرفته بهدوء يحمل كشافا صغيرا، تحرك فى الظلام بهدوء، نزل السلم إلى الطابق الأرضى، ثم إلى الخارج.

لف خلف البيت، ووقف أمام باب البدروم.

arabworldbooks.com

كان القمر النصفى قد اختفى خلف السحب، وأصبحت الظلمة شديدة، نزل الدرجات فى هدوء.

المـزلاج أصـدر صـوتا مزعجا رغم كل محاولاته الهدوء، والباب أيضا أصدر صريره المعدنى الصدئ.

انـتظر قلـيلا، لا صوت ولا حركة هناك، لا يبدو أن أحدا قد سمع شيئا.

دلـف إلى الداخل، أضاء الكشاف، ونظر حوله، لم يبد شىء مختلفا.

كل شىء فى البدروم القديم كما هو، تقريبا. أثاث قديم مكـوم فـى جانب من البدروم، وأتربة ورائحة عفونة، حركة فئران تجرى لتختبئ عند سماع فتح الباب والخطوات. فى ركن كانت هناك أكوام قليلة من الأتربة، اقترب، هناك حفر بالفعل، وبدايـة نفـق فى الأرض وجه إليه المصباح، نفق مظلم، ماذا هـناك، نزل إليه. اضطر لأن ينحنى لمسافة ثم بدا اتساع ما، جـدران طينـية مليئة بالرطوبة، لكن هناك هذا الجزء الأملس المقـوس، اقترب منه ورفع المصباح، ورأى. إنه عمود، جزء مـن عمود وعليه كتابة، قرب المصباح، حاول أن يقرأ، لكنه سمع صوتا.

مـاذا يفعل؟ اتجه عائدا إلى باب النفق، لم تكن المسافة طويلـة، هناك وجده أمامه، تبادلا نظرات، وقال خالد: "هيا يا عبد الودود، لا غريب هنا."

دخل عبد الودود، حاملا الفأس والمقطف، انحنى داخلا الـنفق، وقـال خالد: "ما دمت هنا، فالأفضل أن تشرف بنفسك

arabworldbooks.com

علـــى كـــل شيء، طبعا أنت خبير بهذه الأشياء، ويمكنك إنقاذ الأمر قبل أن يتلف شيء."

أصـــابت المفاجأة حمد بالصمت. ولكنه قال فقط: "إننى متعب، سأصعد لأنام."

"لا تتراجع، أنت نزلت هنا بنفسك، قم بواجبك وستلقى أجـــرك. إنـــه مالك على أى حال ولا أظنك تنتظر أجرا، لكن اعمل معى على الحفاظ عليه."

عـــاد حمـــد ينظر إليه، لم يعد شيء يدهشه منه. قال مصرا: "إننى متعب، وسأصعد لأنام!"

ابتسم خالد: "هل تنام هكذا؟"

نظـــر إلى ملابسه، كانت الأتربة الرطبة تعلوها، الأن فقـــط أحس بها على بشرته ورموش عينيه، لكنه لم يتكلم، كان بحاجة لأن يفكر كثيرا. خرج من البدروم وصعد إلى البيت.

فـــى الـــرطوبة رأى حمد طرفا من عمود قديم، وعليه كـــتابة، لـــم يكن لديه الوقت ليتبينها، هل بنى بيتهم فوق معبد قديم؟ مقبرة؟ لابد أن يعود فى يوم آخر ليرى أكثر.

جلس فى غرفته بترابه، لم يغير ملابسه، فى يوم كهذا ذهـــب إلـــى الأســـتاذ عبد الستار فى الصباح الباكر هاربا من أفكاره المثالية المرعبة. كان يذهب فى رحلة بين الحين والآخر يرســـله فـــيها والده ويعود بشيء ما، ولم يسأل نفسه ابدا، أو الحقيقة، لم يواجه نفسه أبدا.

الأســـتاذ عـــبد الستار، ظل فى خياله إنسانا وحيدا لا يتصـــل بـــأحد من البشر، لا أم أو أب أو زوجة أو ابن أو أى

arabworldbooks.com

صـــلة أخـــرى، شخص مقطوع الجذور، ولا فروع له. وكأنه خاص به وحده، وكأنه من صنع خياله وحده.

لـــيلى، ونعمـــة، قصتان فى حياته ظلتا بشكل غامض تســيطران على خياله، لم يعرف أبدا كيف حدث أنه كان يحب فتاتيـــن فى نفس الوقت، ولم يعرف أبدا هل كان ذلك نوع من الضـــعف فى شخصه؟ أم نوع من الخيانة الأصيلة؟ لكن نعمة كانت قصة رائعة، رغم ما يملأها من مآسى وآلام.

يوســـف وأمـــيمة، مـــوت مأساوى لكل منهما، أقرب أصـــدقاء عمـــره، تطـــوف صورة كل منهما بمخيلته مشوهة ومـــبهمة، يوسف فى حالة سكره الشديد، وكأنه لم يكن أبدا إلا ســـكيرا، أمـــيمة وهى تسب يوسف فى شجار بينهما ذات يوم، وكأنها لم تكن أبدا إلا سليطة اللسان.

ولكن الصورة المتخيلة لموت كل منهما أيضا كانت قد تكونـــت فى خياله وكأنه رآها بالفعل، وكأنه كان حاضرا رغم أنه لم يكن.

خالد وتحولاته، من مدرس ابتدائى إلى السفر إلى بلاد البـــترول، وعودتـــه ملتحـــيا ثـــم دور أمه فى إبقائه وتغييره، واســـطبل الخيل الذى تحول إلى شركة للإنتاج السينمائى فيما بعد.

ســـفره إلـــى الأقصر، مرحلة قصيرة، لكنه عاش فيها الكثـــير، عم على وتأمله للحب، روزا، تركها فى إنجلترا وعاد إلـــى مصر. ربما يجدها يوما أمامه، إنها تحب مصر على أى حال، لم يستطع أبدا أن يعرف السبب.

arabworldbooks.com

لمن يذهب اليوم؟

هـل أصبح هو أيضا مقطوع الصلات مقطوع الجذور مقطوع الفروع؟ أما عاد له من يضع رأسه عنده فيحس براحة؟

خلـع ثـيابه ودلف إلى الحمام، نزل من الصنبور ماء بـارد، لم يهتم بتدفئته، بل شعر به يهدئ ارتعاشه ويخفف من سـخونة رأسه. عاد يرتدى ملابسه وخرج من البيت. اتجه إلى بيـت مجـدى، وتـردد فـى طرق الباب، فحميه شخص ذو تصـرفات غبـية، وحماتـه لا مانع عندها من الصياح بأعلى صوتها فى وسط الليل. ووجد أنه غير قادر فى حالته هذه على التعامل مع أى منهما فى مثل هذا الوقت.

سـار نحو شارع الهرم، اتجه شرقا، نحو المنصورية، وتعداها.

كـان الليل يسود الشوارع والسيارات تنطلق فى شارع الهرم، أنوارها تصطدم بوجهه.

كان عبده جالسا أمام المحل على الرصيف، يشد أنفاس الشيشـة، وعـم صبحى أمامه، على كرسى صغير واطئ كان يفضله دائما.

جلـس بلا كلمة، ولا سلام، نظر عبده إليه ومد له يده بمبسم الشيشة ليأخذ نفسا.

كان خالد يقول له: "إلى أين فى المرة التالية؟"

ولما لم يسمع منه إجابة أبدا، بدأ يقول له: "جئت لترى والدك قبل أن يموت، لكنه مات قبل أن تجيئ، فمتى ترحل؟"

arabworldbooks.com

قال حمد فى دهشة: "ماذا؟"

قال خالد: "متى ترحل؟ قل لى ولا تفاجئنى برحيلك، ألا تعرف أن أمك قلقة وتقول لابد أنك عائد إلى لندن؟"

تذكر حمد أنه يمكن أن يعود إلى لندن بالفعل، رغم ما حدث بينه وبين روزا من جفاء، إلا أنه كان لا يزال يأمل أن يعود إليها. بدأ يعى أنها كانت فى الواقع تملأ حياته وتسانده رغم كل شىء. تلك الشخصية التى حيرته كثيرا، تهوى مصر وتغرم بالمصنوعات المصرية اليدوية البسيطة. تجلبها وتروج لها وتكسب منها، ثم تتاجر فى القطع الأثرية الممنوعة، لكنها تجد لها مشترين. هل كان والده هو مصدرها الوحيد؟ وهل تتعامل بعد ذلك مع خالد؟ أم أن لها طرقا أخرى؟ لم يتحدث معها أبدا فى هذه الأشياء، ربما كان هو الذى يتجنب الحديث فيها، وربما كان هو من قصد وضع حاجز بينه وبينها فى منطقة العمل بالذات. رغم أنه كان يعلم أنها وهى تفرغ حقائبه بعد العودة، تنال أشياء مرسلة لها خصيصا. لكنه بنوع من التواطؤ والجبن كان يتظاهر بعدم المعرفة. فى يوم ما سوف يُقبض عليه وهو يمر من مطار القاهرة، لكن هذا لم يحدث لحسن حظه إلى اليوم. مجرد حظ، ربما حظ عاثر فى الحقيقة. أما كان كل ذلك فى الواقع نوعا من الخيانة؟ أما كان وهو يفعل ذلك يحرم حتى نفسه من تأمل أشياء تضيع إلى الأبد؟

لكنه الآن كان يشعر بالوحدة، نظر وهو جالس إلى جوار عبده إلى واجهة المحل القديم الذى قسمه بين شركة

arabworldbooks.com

السياحة وسجاد الحرانية. الواجهة غطتها الأتربة، وبدت جدرانها الخارجية وقد تعرضت لبعض ألعاب الصبيان التخريبية العنيفة.

كان عبده قد بدأ يتحدث، وانتبه حمد وهو يحكى له عن أبيه.

"كان يحب الحياة، كنت أظن أن من يحب الحياة لا يموت بسهولة."

في الحقيقة هذه الجملة نطقت بطريقة حتى أن حمد انتبه بعد لحظات يسأل نفسه هل كان هو الذى نطقها أم عبده.

لكنه انتبه إلى عبده يقول:

"هل تعرف؟ ذات مرة أنقذته من الموت؟"

- ٥٣ -

عندما دخل الدار وجد النساء جالسات القرفصاء ظهورهن مسندة على الجدران تدور بينهن تلك الهمهمة الغامضة التى طالما كرهها، وقد لففن رءوسهن بالطرح السوداء وجلابيبهن السوداء تلمع فى الضوء الكابى فى غبشة الردهة. على الجانبين جلسن، كل منهن وضعت يديها فى وضع غريب بشع، إما على ركبتيها، وإما أسندت بهما، أو بإحداهما رأسها، وكأنما تخشى وقوعه قبل خروج روح الرجل. أمه لم تكن ظاهرة بالمشهد. وعندما دخل، وقع الضوء النهارى الآتى

arabworldbooks.com

مـــن خلف ظهره فى المدخل مظهرا ظله طويلا بين الجالسات اللاتـــى لفهن السواد. التفتت أنظارهن نحوه دون أن يتحركن، وتحركـــت شفاههن لتخرج تصعيبات لا معنى لها لدى رؤيته. عـــرف للحظته أنه جاء فى الوقت المناسب، وأنه لم يمت بعد. دخل إلى الغرفة، وجد أمه جالسة عند رأسه تمسح عليه، وتتمتم بآيـــات القرآن التى تحفظها. سورة يس، تقرؤها بصوت غير مســـموع، وإنما تخرج معه من حنجرتها زنة رتيبة لا تتوقف، علـــى نفس النغمة الرتيبة. وقف لحظات، بلا صوت يراقب ما يحدث، كان الرجل العجوز لا يكاد يبين بين الأغطية التى تعلوه وتحـــيطه. اقـــترب بخفة، نظر إلى عينيه، كانتا مغلقتين، لكن رمشة خفيفة طمأنته على ما جاء له.

قال فى حدة غيظه: "ماذا تفعلين بالرجل؟"

انتبهـــت المرأة، لم تتحرك حتى انتهت من الآية التى كانت تتمتم بها، التفتت إليه:

"أخـــيرا جئـــت؟ لحسن الحظ أنه لم يمت بعد، لك حظ تراه.."

قاطعهـــا: "لـــم يمت بعد؟ ولن يموت، ليس الآن، هيا اذهـــبى إلـــى النســـوة الجالسات بالخارج واطرديهن، لا داعى لوجودهن فلن يموت الآن."

وقفت المرأة غاضبة: "ماذا تقول؟ هل أطرد ضيوفنا؟"

arabworldbooks.com

قـــال رافعا صوته بغضب: "كل امرأة بالخارج تنتظر موته لن تفلح، وسيكون نأبهن على شونة؟ اذهبى اطرديهن وإلا طردتهن بنفسى. اخرجى أريد والدى على انفراد.."

"هل جننت؟"

شدها بعنف من ذراعها فقامت من مكانها، واتجهت إلى الـــباب، بيـــنما فتح والده عينيه بصعوبة وقال بوهن : "أخيرا جئت؟ ما الذى أخرك؟"

اقـــترب مـــنه بينما خرجت أمه باكية بصوت مرتفع، وارتفعت الهمهمة بين النسوة خارج الغرفة، انحنى على رأسه وقـــال بهمـــس: "سامع؟ النسوة اجتمعن يردن موتك، وها هن يؤديـــن طقوسهن لعذرائيل كى يحضر، هل ستتركهن ينتصرن ويـــنجزن مســـعاهن الأثيم؟ هل تتركهن يقتلنك؟ اعرف أنه لا صـــالح لى بك، إن كنت تريد الموت فسأرحل فى الحال، فماذا أفعـــل بأب ميت؟ أما إن كنت ترغب فى الحياة.. فسأبقى، هيا، تحرك.. وجاوبنى.."

ابتسم الأب ابتسامة واهنة، وأشار له بوجهه أن يقترب أكثر، وأخيرا قال بصوت لا يكاد يسمع: "يا ابن الكلب!"

ضحك الفتى، وقال: "أترى؟ ها أنت ترغب فى الحياة، فلماذا تموت إذن؟ ثم أنت فى خير حال كما أرى.."

قال الأب: "إننى متعب جدا، يبدو أننى أموت فعلا!!"

قـــال ســـاخرا: "قل هذا لمن لا يعرفك، ودعك من هذه التمثيلية السخيفة، أنت متعب فقط لأنك لم تستحم منذ مدة، منذ

arabworldbooks.com

مـــتى لم تضع المرأة الماء على جسدك ولم تدهنه لك بالطيب؟ ولم تدلك بدنك بيديها؟ هل أقنعتك بأنك عجوز خرف لا تصلح؟"

ضـــحك الأب فجـــاءت ضحكته واهنة يقطعها سعال ضعيف غير قادر على الخروج: "قلت إنك ابن كلب!"

ضحك الفتى: "فلأكن، ابن كلب أنا، ومن الذى أنا ابنه؟ وهـــا أنت تضحك وكأنك تموت أيضا، انتظر حتى أخلص من هاتـــه النســـوة الجالســـات بانتظار خبرك، لابد من أن يأخذن الطريحة منى وإلا فلن يذهبن!"

وقـــف بـــباب الغـــرفة، كن لا يزلن يجلسن فى نفس مجلســـهن وقـــد ارتفع بينهن اللغط، لكن لم تتحرك واحدة من مكانهـــا، قال بصوت مرتفع: "ياللا يامرة انتى وهية، مستنيين إيـــه؟ عايزين تقتلوا الراجل وهو لوحده؟ طب انا جيت ياروح امك انتى وهية، تلاتة بالله العظيم اللى ما هاتقوم بالذوق..."

وقفت بعض النساء، ونظرت بعضهن دون أن يتحركن من مكانهن، قال بغيظ: "ما قلتلكوا تتوكلوا، إيه؟ ما فيش واحدة وراهـــا راجـــل ولا عـــيال؟ مالكوش شغلانة جايين تتسلوا ع الراجل عشان الست صاحبتكوا دى تبقى تجاملكم فى المناسبات وتيجى تساعدكم على قتل اجوازكو انتو كمان؟"

قالـــت إحداهن: "أما إنك صحيح ناقص رباية.. بقى ده جزاتنا؟ خير تعمل شر تلقى."

وأكملت أمه غاضبة: "ولد سوّ، جبت لنا الكلام."

arabworldbooks.com

قـــال ســـاخرا: "ومالـــه، إنتوا مستنيين أقول لكو إنى مـــتربى؟ لأ، أنا بقى مش متربى، وأعلى ما ف خيلكو اركبوه، قومى هاتى لى الطشت، والنسوان دى كلها تروح."

تحركـــت أحداهن بغضب مبدية امتعاضها، وهى تتمتم بكلمات غير واضحة المعالم، نادى عليها ساخرا: "بتقولى إيه يا مـــرة يا مجنونة، ما تخليكى جريئة وتتكلمى بوضوح، طبعا ما تقدريش، وكل واحدة منكن ما تقدرش تكون صريحة وتعترف إنهـــا جـــاءت تبكى على نفسها، وتجلب النكد على الدار دى، روحـــوا عـــيطوا فى دياركم، هنا ما حدش ها يعيط وما حدش هايموت."

بـــدأت النساء بالفعل يتحركن خارجات من الدار وكل منهـــن تقول ما تقدر عليه فى غضبها، وانفجرت أمه باكية: "يا ويلى ويا سواد ليلى!"

صـــاح بهـــا: "قومى هاتى الطشت، وخلى الصريخ ده بعدين لما تفضى."

والتفت داخلا الحجرة ثم عاد يلتفت إليها: "وسخنى ميه، ها احميه!"

* * *

قـــال عبده: "وبالفعل، حممته فى ماء دافئ، ودلكت له جسده، وملأت غرفته بالبخار المتصاعد من الماء، ثم أخرجته مـــن الطشت ولففته ببطانية ووضعته فى فراشه. نام، وعرق، وفى المساء كان يصيح طالبا طعاما.

arabworldbooks.com

ذهلـــت أمـــى، كانت تقسم أنه ظل يرفض الطعام أياما عديدة، حتى داخلتها القناعة بأنه بسبيله إلى الموت.

وعاش أبى بعدها خمس سنوات.

ومات فى وقت لم أكن أتصل بهم، ولم أعرف إلا بعد موته بأيام.

- ٥٤ -

لِمَ ينحنى الظهر وتتضاءل الأكتاف؟

وينخفض الرأس نحو الصدر، وينبذ الشعر عن مقدمته.

ويتقوقع القفص على الرئتين، مضيقا حتى على الأنفاس القليلة المتاحة للقلب.

لـــمَ تنقضـــى الأيـــام ولـــم تحمـــل من الحياة ما يملأ الصفحات؟

لِمَ تغمض العينان فى الليل، رغم الألم والفوضى؟

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

الفصل الحادى عشر

- ٥٥ -

كان عبده يحكى، دون أن يعلم أن هذه الجلسة قد تكون الأخيرة مع حمد، ففى اليوم التالى تماما جاء محمود العربجى، أو الـذى كان عربجيا قبل أن يصبح مالكا لعدة سيارات للنقل، وقطعة أرض واسعة فى شارع زغلول جعلها جراجا لسيارات الـنقل والأتوبيسـات الفاخرة التى كان يؤجر بعضها لشركات السياحة، جاء محمود العربجى يقول له:

"هل رأيت حمد قريبا؟"

قـال عـبده: "كان معى مساء الأمس، سهرنا هنا أمام المحل، كان فى حالة غريبة جدا."

قال محمود العربجى: "قتل حمد اليوم!!"

وكـان غريـب يحكـى عن حمد، وسأله أحدهم: "هل أمسكوا القاتل؟"

كان غريب قد عاد بالأمس من الهرم بعد أن قضى عدة أيـام فى ضيافة عبده الفخرانى، أسكنه عبده فى الفاخورة التى بـناها له حمـد مع يوسف منذ عدة سنوات قبل أن يذهب إلى لندن. فى ذلك الوقت دعا حمد يوسف لبناء فرن خزف لعبده فى الأرض المتسـعة خلف محل الفخار المطل على شارع الهرم،

arabworldbooks.com

خلف واجهة المحل بعدة أمتار، وجعلا لها غرفة لخزين الفخار النيئ، وغرفة للدولاب، كان عم صبحى لا يزال قادرا على إيقاد الفرن، وجعل أحد صبيانه يصب نماذج من أشكال تبدو قديمة، لكن لا يعرف أحد مدى مطابقتها للأصول التى جاءت منها.

أخذ غريب يتأمل فى أحد هذه النماذج متعجبا، ضفدع أخضر اللون من الخزف، صغير الحجم، فى الحقيقة يبدو فى حجم ضفدع حقيقى، لكن التفاصيل الدقيقة على ظهره ويديه كانت رائعة.

قال غريب لعبده: "إننى أتخيل هذا الضفدع وكأن به تطعيما من الأحجار الكريمة فى هذه النقوش البارزة، هل هو نموذج مطابق للأصل؟"

قال عبده بدهشة: "قال لى حمد ذلك، فهو الذى أمدنى بكل هذه النماذج، والسياح يحبونها جدا رغم أنها لا تطابق أى شىء معروف أو مشهور، والعجيب أنه بخصوص هذا الضفدع بشكل خاص، قال لى أنه فى الأصل كان مُطعّما بأحجار كريمة."

كان عبده قد أخبره أن المشاجرات كثرت بين حمد وأخيه فى الأيام الأخيرة بعد وفاة والدهما، وفى إحدى هذه المشاجرات ضربه أخوه بمسدس أبيهما الذى كان يحتفظ به فى درج مكتبه.

arabworldbooks.com

وكـــان مجـــدى قد أسرع إلى بيت حمد بمجرد سماعه الخـــبر، وجد الأم جالسة فى سكون، ورجال الشرطة يتجولون داخل البيت، بينما كان خالد واقفا فى حالة من الذهول.

وبكـــى خـــالد عندما رأى مجدى، كانت زوجته أيضا وبعض بناته جالسات هناك باكيات.

بيـــنما كانـــت أخـــته الوحيدة إلى جوار أمها فى حالة ذهـــول، لـــم يكن هناك من يبدو متماسكا سوى الأم، التى كان وجهها يبدو فقط مليئا بالغضب.

فى مركز الشرطة، سألوها، قالت أنهما كانا يتعاركان، وأن حمـــد كـــان هو المعتدى، وهكذا أفرج عن خالد بعد قليل، حيث اعتبر الأمر دفاعا عن النفس.

ظل مجدى ملازما للمرأة كل يوم لا يتركها حتى أفرج عن ابنها، قالت له: "وماذا أفعل يا مجدِى؟ هل أفقدهما كلاهما؟ هل يموت أحدهما، ويعدم الآخر؟ لا، حتى لو كان مخطئا، إننى بحاجـــة إلـــى رجل يقف إلى جوارى وإلى جوار امرأته واخته وأولاده الصغار."

- ٥٦ -

أحـــنى مجـــدى رأســـه، لقد رأى أشياء كثيرة فى هذه الحـــياة، ولم يكن الأمر غريبا الآن، لم يعد شىء فى هذه الحياة غريـــبا، هناك دائما احتمال لكل شىء، الموت، البقاء، الحزن والسرور أيضا.

arabworldbooks.com

وقـــال عـــبده وهو يهز رأسه: "ربما تكون هى العدالة الســـماوية علـــى أية حال، فأختهما التى حرمت من مال أبيها، سيعود لها نصيبها فى الميراث بفوائده أيضا."

هز غريب ومجدى رأسيهما، ولم لا؟ ربما إن تفكر فى الأمر من هذه الناحية تحس ببعض الراحة.

قـــال مجـــدى: "فقط هناك تلك القوائم التى كان يعدها، بأسماء فرق ممن كانوا يعملون فى بناء الهرم، من الذى سيكمل هذا العمل؟"

وقـــال غريب: "هناك من سيكمل، سيكتمل العمل على أى حال مهما طال الوقت."

- ٥٧ -

جـــاءنى فى منامى حبيبى، وحكى لى أنه جاء إلى هنا من زمن قديم، كنت فى مقبرة قريبة أقوم بحراستها، تسكن فيها مومـــياوان، لـــرجل وامرأة، أحببتهما، وأصبحا صديقين لى، أرهمـــا فى كل يوم تقريبا وحدى، فالمقبرة لا زالت جديدة ولم ترمم، ودخولها ممنوع فهى معرضة للانهيار.

أدخـــل إليهما فى الصباح أقرئهما السلام، أجلس على المصـــطبة الجانبـــية أمامهما، يدخل إلينا ضوء قليل من فتحة المقـــبرة، أشـــعل سيجارتى وأحكى لهما حالى، ظللت أتحدث إلـــيهما زمنا طويلا، حتى جاء المهندسون يوما وقرروا إغلاق

arabworldbooks.com

المقـبرة بـباب حديـدى حتى لا يدخلها أحد إلى أن ينظر فى أمرها.

كانـت الخطـة تقضى بترميمها، لكنها لم تكن تحتوى رسـوما أو ما يدل على شخصية أصحابها، وربما كان ذلك ما جعلهم يرجئون الأمر إلى أجل غير مسمى.

أصـابنى الهـم والغـم، فقد انقطعت عن عادتى وعن حبيـبىّ الراقديـن هناك، لم أذهب إلى عملى فى الهضبة لأيام عديدة، فقد أصابنى المرض، لكن حبيبىّ لم يتركانى، وإنما جاءا إلىّ يسعيان.

فى ليلة غريبة، دخلا من باب غرفتى التى أسكنها فى بيت يسكنه عدد من الأسر أنا العازب الوحيد بينهم، جلسا على الأرض معى، تركت لهما فرشتى التى أنام عليها، وتبادلا معى الكـلام، نعـم، كان هذا أفضل كثيرا، ففى السابق كنت أتحدث وحدى، وكنت لا أسمع منهما سؤالا أو جوابا، أما الآن، هاهما يسـألاننى عن حالى وكيف أصبحت، عن أمى وهل زرتها منذ تركـتها مريضة عندما روحت إلى البلد منذ أشهر، ولما ماتت أمى كانا هناك يواسياننى ويأخذان بخاطرى.

ولمـا رأيانى أصلى أحيانا أصابتهما الحيرة، وسألانى عمـا أفعل، فأخبرتهما عن دين الإسلام، وبعد أيام اختفيا لفترة طويلة، تقرب من شهر كامل، ثم عادا، يرتديان ثيابا عربية، هو يـرتدى جلبابا أبيض مصنوعا فى كوريا، وهى ترتدى عباءة سوداء وقناعا أسود تغطى به وجهها.

arabworldbooks.com

وبعد قليل فهمت منهما كل شئ، لقد زارا مكة المكرمة، وأديا الحج أيضا، ودخلا فى دين الإسلام.

"يا دين النبى، الراجل جنانه أخد شكل تانى خالص."

لست مجنونا، إنما أحدثكم عما حدث بكل أمانة وإخلاص، لقد زارا مكة. ولما أسلما تزوجا على سنة الله ورسوله.

"هل دخلا الكعبة نفسها؟"

"لا أعرف، لم يفصحا لى عن هذا، سألتهما هذا السؤال فنظرا إلى نظرة غامضة ولم يجيبا بشىء، ولما كررته، قال لى الرجل الكريم: 'لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم'."

هلل الرجال: "هل حفظ القرآن أيضا؟"

"أظن ذلك، على الأقل كثيرا منه، إننا الآن نقضى الوقت فى قراءة القرآن، المشكلة أنه الآن لا يريدنى أن أبيت معهما فى الغرفة، لكى لا تتكشف امرأته أمامى، وأصبحت أضطر إلى طلب نوبة الحراسة الليلة دائما لأبيت فى الهضبة، وأتركهما فى الغرفة معا، والآن أفكر أنه ربما كان علىّ أن أستأجر غرفة أخرى. وهذا كثير على دخلى ، لكن، من أجل الرجل الكريم..."

قاطعه بعضهم ضاحكا فى سخرية: "هل أسميته بالرجل الكريم؟"

"نعم، منذ أعز الله الإسلام به."

كان رد فعل البعض هو السخط: "لقد جن بالفعل!"

arabworldbooks.com

"ولمـــاذا لا أسميه كذلك؟ ألم يكن ملكا حقيقيا؟ وكانت امـــرأته ملكـــة حقيقية؟ ثم أعز الله به الإسلام، ألا يستحق هذا اللقب؟"

* * *

كـــان خمـــيس يســـير فى النـــزلة يحدث نفسه معظم الوقـــت، مـــتذكرا أحاديـــث نبوية، أو آيات، يناقشها مع نفسه، ويرددها مرة بعد مرة.

"وكـــيف يمكـــن أن يكون الناس شركاء فى ثلاثة هى الماء والكلأ والنار ويستقيم ذلك مع أن تسعة أعشار الرزق فى الـــتجارة؟ لم أفهم هذا أبدا، هل تعرف، إنه حديث عبقرى، هذا الخـــاص بالماء والكلأ والنار، معنى ذلك أننا جميعا شركاء فى مصادر الرى وفى ما تنتجه الأرض من غذاء ووقود، هكذا قال لـــى صديقى وحبيبى، هل تعرف ما معنى ذلك؟ معناه أن لكل إنســـان الحق فى الحصول على حاجاته الأساسية بدون قيد ولا شـــرط، معـــناه أن بيع أى من هذه الأشياء حرام حرام، فكيف يكـــون ذلـــك مع أن تسعةً أعشار الرزق فى التجارة؟ ليس ثمة تـــناقض بين حديثين عن الرسول، ليس ثمة تناقض، بالطبع لا يمكن أن يكون أى تناقض، لكن عقلى لا يقبل، أعنى لا يستطيع أن يفهـــم هـــذا، حاولـــت ولكنى لا أستطيع، هكذا قال صديقى وحبيـــبى، قلت له أنت مجنون، ولابد أنكم جميعا الآن تقولون أننى مجنون، ولابد أننى فعلا مجنون، عندما لا يصل عقلى إلى فهم ذلك فلابد أننى مجنون."

arabworldbooks.com

كـــان عبده الفخرانى يقول له ساخرا: "يكفى أن تعرف أنك مجنون، هذا يريحنا."

يحكى لهم خميس أشياء عجيبة عن تصرفات صاحبه، وكـــان مجـــدى هو الوحيد الباقى ليتحمل مثل هذه الحكايا من خميس، يستمع له، ويتألم فى صمت، لم يبق له إلا أن يتألم فى صـــمت، ويـــنظر إلى عياله الأربعة يخرجون إلى الدنيا، كل يبحث عن رزقه، والأغلب أن يعودوا بين يوم وآخر متعطلين يسألون عن مأوى فى حضن حميه العجوز، ولكنه كان يستمع إلى خميس على أى حال.

- ٥٨ -

ورغم ما حدث إلا أننى لم أكرهك أبدا، وكنت لى دائما كحلم جميل لم يتحقق.

ما أغرب الحياة، وما أغرب ما نراه منها.

لكن الغريب فى الأمر أننى بعد ذلك لم أستطع أبدا أن أنظر فى وجهك.

لم أستطع أن أواجه نظراتك.

- ٥٩ -

خلـــوة ســـيدى حمـــد السمان فوق الهضبة، خلف أبى الهـــول، وأسفل الهرم الأوسط، فى كل جمعة كان الناس يأتون

arabworldbooks.com

مـــن كل مكان حول المنطقة، يأتون بمرضاهم لزيارة الخلوة، وهناك كانت تتحقق معجزات الشفاء، النساء يدخلن إلى الخلوة فى النصف الأول من النهار، أما الرجال فلهم النصف الأخير، هذه حجرة السيد البدوى، وتلك حجرة السيدة الهاشمية، أما تلك فهـــى حجرة السيدة عائشة، هنا تمارس طقوس الذكر، والزار أيضا.

- ٦٠ -

وقف مجدى، يواجه القناع المعلق على الجدار.
وإلى جوراه، إلى جواره تماما، كتب مسرد الأسماء:
نورا
الأستاذ عبد الستار
نعمة
أميمة
يوسف
حمد
وتردد قليلا، ثم أضاف اسم خميس.
ثم كتب بخط عريض ... بضع نقاط متجاورة.

arabworldbooks.com

arabworldbooks.com

تنويه

حظيت أثناء كتابتى لهذه الرواية برعاية وزارة الثقافة فـــى شكل منحة تفرغ كانت بالنسبة لى سندا كبيرا. لكن انتهاء فترة التفرغ قبل الانتهاء تماما من الرواية كان سببا فى تعطلها عاميـــن تقريـــبا. إذ كانت الوظيفة من ناحية، وظروف حياتى اليومية من ناحية أخرى أشبه بجحيم يصعب فيه الإبداع. وكان من حسن حظى أن حظيت بمنحة من مؤسسة ليديج ــ روفولت لقضاء ثلاثة أسابيع فى قصر لا فينيى بسويسرا متفرغة لإنهاء هـــذا العمـــل، وبـــالفعل ساعدنى كثيرا التفرغ التام والبعد عن الروتين اليومى.

وأديـــن بـــبعض المعلومـــات الواردة فى هذه الرواية، لأصـــدقاء عديدين، أما فكرة قوائم أسماء العاملين بالأهرامات، فقد عرفت بها من باحثة المصريات الأمريكية آن روث.

وكان الدعم المعنوى الذى قدمه لى الكثير من أصدقائى ضـــرورة حقيقـــية لإنجاز هذا العمل ــ وفى مقدمتهم نعمات البحـــيرى، الأســـتاذ إبراهيم فتحى، ابتهال سالم، والأستاذ سعد زهران. كذلك يجب أن أذكر د. جابر عصفور، الذى كان سندا دائما، ماديا ومعنويا، أثناء التفرغ وبعده.

arabworldbooks.com

أمـــا ماريلين بوث ود. سامية دياب فقد تفضلتا بقراءة المخطوطـــة والتعلـــيق علـــيها بملاحظـــات أفادتنى كثيرا فى مراجعتى الأخيرة لهذه الرواية.

وأخـــيرا أشـــكر الأســـتاذ محمد هاشم والعاملين بدار ميريت على مجهوداتهم الرائعة والتى تستحق كل تقدير.

أضـــيف إلـــى كل من سبق أفراد أسرتى، أبى وأمى، وأخوتـــى، وابـــنىّ: إســـلام ومحمد الشرقاوى، الذين تحملونى جمـــيعا، ومـــا يـــزالون يـــتحملون عصبيتى ومزاجى العكر، ويحيطوننى بدفء وحب أسرى لا يمكن لى العمل بدونه.

سحر توفيق

لا فينيى ــ سبتمبر ٢٠٠٢

arabworldbooks.com

وسألته: "ماذا ستفعل بهذه الأشياء؟"
نظر لى طويلا، ثم قال: "من أجلك، لن أبيعها، لكى تفهم أن المسألة ليست مسألة بيع، لكن هذا الجمال النادر يجب الاحتفاظ به، نحن أحق به، سأضع هذا الإناء فى البيت كفازة، وأما الضفدع فسوف احتفظ به فى درج المكتب، إنه يساوى الكثير بالفعل، ولا أريد التصرف فيه، كما أخشى أن يسمع به أحد.»
بعد ذلك وضعنا الإناء الكانوبى فوق خزانة الأدراج الموجودة فى غرفة المكتب. كانت أمى معجبة به جداً، وأطلقت عليه: "الفازة المرمر، وبعد قليل كنا كلنا ندعوه بهذا الاسم، وارتاح أبى لهذه التسمية أيضاً، قال ذات مرة ضاحكاً: "الفازة المرمر، اسم أفضل من تضييعه.."

الغلاف: أحمد اللباد

ميريت

arabworldbooks.com